

روايات مصرية للجيب



أسطورة

ما وراء الطبيعة

أرض الظلام

68

Looloo

www.dvd4arab.com



د. محمد خير الرفيق



القصة

كما تعرفون ، هذه هي آخر قصة عندي من قصص الأخ (سالم) و(سلمى) اللذين جاءا من أرض أخرى تشبه أرضنا في كل شيء وتزوجا ..

معا قرأنا (أرض أخرى) و(أرض المغول) و(أرض العظايا) .. وهي رحلات عجيبة في عالم بلا فراغة .. وعالم سيطر فيه المغول على كل شيء .. وعالم انقرض فيه العرب تقريباً ؛ لأنهم لم يتطوروا .. بالترتيب ..

اليوم أحكى لكم قصة أرض الظلام كما قصتها (سالم) في أوراقه ..

هل من قصص أخرى ؟ لا أعتقد .. إن (سالم) لم يظهر قط منذ ذلك الحين ولا أحسبه سيفعل .. إنها القصة الأخيرة فعلاً ، وأرجو أن تستحق ذلك ..

بالنسبة لى أنا بخير كما تعلمون .. مشاكل بسيطة جداً تذكرنى بالنكتة القديمة عن العجوز الذى يقول لأقاربه : أنا بخير .. لا ينقصنى إلا الصحة والسعادة والمال !

مشاكل مع عدسة العين وضغط الدم والربو والمثانة والرئتين والشرابين الناجية وشرابين المخ .. هذه مشاكل معتادة على كل حال ولا تثير قلقى ..

من حين لآخر أقوم بجولة بسيطة فى شارعنا .. لكن هذا صار مخاطرة مع كل تلك الحفر التى لا تتردم أبداً .. هناك دوماً ماسورة مجار ما أو كابل كهرباء أو ماسورة ماء .. هناك دوماً شىء يتم إصلاحه أو استبداله ، وهذا يعنى أن تحطيم عنقى وارد فى أية لحظة ..

معنى المخاطرة بركوب السيارة أننى سأظل سجيناً فيها فى الزحام عدة ساعات .. أما سيارات الأجرة فسائقوها يعانون حالة مزمنة من السادية والاحتقار لمن يمشون على أقدامهم .. لقد ابتاعوا هذه السيارات من أجل متعتهم الخاصة وللزهوة ، ومن الوقاحة أن تشير لهم كأنهم سيارات أجرة ..

هكذا أقرر أن أعود لدارى من جديد ..

ابن البواب يبتاع لى ما أريد من الخضر ، أما البقالة فأطلب ما أريد بالهاتف .. أم (شخص ما) التى تقوم بتنظيف الشقة تطهو لى من حين لآخر ، لكنها تنسى شعر رأسها فى الحساء أحياناً ..

لا أفعل شيئاً ذا قيمة إلى أن تأتوا لى كى تسمعوا قصصى .. هنا فقط أستعيد مرعى وحيويتى ، وأتلقى وعداً بساعات من الاستمتاع ..

سأعد بعض الشيكولاته الساخنة وأتى لأجلس معكم ..

هكذا .. الآن نبدأ الكلام عن أرض الظلام ، وهى كما اعتدتم قصة لا دور لى فيها إلا بعض التصحيح اللغوى والتدخل فى النهاية برأى سخيف لا يفيد ..

هيا بنا ..

تمهيد

ها نحن ذان نرتاد الأبعاد والمسافات ..

ثقوب سود ومجرات .. سديم خلف سديم ..

متشابهى اليبدين يرقص الفضاء من حولنا رقصته التي حيرت
الشعراء والحالمين وعلماء الفيزياء ..

ظلام فى ظلام .. وظلام يلد نوراً .. ونور يستحيل
ظلاماً ..

نحن طاقة .. لم يعد لنا وجود مادي ، وبرغم هذا أعصر يدك
فكيف ؟

أنت لى وأنا لك .. قولها !

أنا لك وأنت لى .. هل رضيت ؟

لقد صرنا كياناً واحداً .. امتزجت نراتنا .. وهذا الكيان ثلاثى ..
فلو لم نستعد ماديتنا قط فلربما كان هذا أفضل .. تمننت (أفرويديت)
أن تصير (هرمز) كياناً واحداً .. وقد كان لها ما أرادت .. لقد
جاء ذلك الكائن المدعو (هرمافرودايت Hermaphrodite) ..
لكنه كان مسخاً .. كان يجمع صفات الذكورة والأنوثة معاً ..

لكن كائننا نحن سيكون أجمل .. أعرف هذا ..

لقد فررنا من عالم العظايا .. (جمشيد) و(ستارسكى)
و(إسماعيل خان) .. كل هذا العالم المتشابك المعقد قد فررنا منه
بضغطة زر لنبدأ من جديد !

نبدأ من جديد !

الحلم الذى راودنى منذ نعومة أظفارى .. أن أبدأ كل شيء من
جديد ..

كل الأخطاء والعثرات وزلات اللسان .. كلها لم يعد لها
وجود ..

هناك فى موضع ما عالم أفضل وأروع من الذى تركناه ، وإنما
لواجده ..

هل ترين ؟ هذه هى (الكواركات) .. أقزام خضر .. ثقوب
سود .. كوكبة الدجاجة .. كوكبة القنطورس ..

ثم ثغرة هائلة فى الزمان والمكان .. ثغرة (زمكانية) إن شئت
الدقة ..

سوف نعبرها ..

لا تخف .. لا تخافى ..

أنت معى ؟ أنا معك ..

فلتزر العاصفة إذن ..

إتنا نقترب يا صغيرتى ..

هل تشعر به ؟ هل تحسه ؟

لا أدرى عن أى شىء تتكلمين يا صغيرتى لكن مادمت تشعرين
به فأنا مثلك ..

بالفعل أشعر به ..

إنه يقترب ..

ميلاد عصر جديد ..

فقط أغمضى عينيك ولسوف نرى ..

سوف نرى ..

* * *

الجزء الأول

أرض الظلام

أفكر أننا فى ممر الجردان ..

حيث فقد الموتى عظامهم ..

أية ضوضاء هذه ؟

إنها الريح تحت الباب ..

« وما هذه الضوضاء الآن ؟ ماذا تفعل الريح ؟ »

لا شىء .. نعم لا شىء ..

« ألا ترى شيئاً ؟ ألا ترى شيئاً ؟ »

ألا تذكر شيئاً ؟ »

بلى أنكر .

هاتان لؤلؤتان ..

كأنتا من قبل عينيه ..

« أحي أنت أم لست حياً ؟ أليس فى جمجمتك شىء ؟ »

من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت.س. إليوت)

ترجمة د. (لويس عوض)

1 - هناك خطأ ما ..

عندما تم التجسد كان ما رأيناه محبباً كالعادة ..

لم يكن محبباً .. بل كان مريغاً ..

كانت هناك غابة كثيفة من السراخس ، ومستنقع كريبه
الرائحة ..

السماء مدلهمة مشبعة بلون أحمر منذر بالويل ..

ثم راح شيء يحلق حولنا .. نظرت بدقة فتبينت أنها حشرة
أقرب إلى اليعاسيب .. لكنها ضخمة جداً بحجم قط مكنز ..

قالت (سلمى) واسعة الثقافة :

- « هذه (ويتا) .. الحشرة التي تميز (نيوزيلندا) فى عالمى ..
لكنها ليست بهذا الحجم .. »

تراجعا مبتعدين عن هذا الكابوس الطائر .. فقط لنتورط أكثر
فى المستنقع ..

فجأة دوى الزنير فارتجت قلوبنا بفعل الرعب وفعل تأثير
(الدولبى) القوى .. ومن جهة أخرى جاء زنير أعلى ..

وكانما نحن فى كابوس رأينا ذلك الوحش يرفع رأسه من
بين الأشجار وهو يزار .. ذات المشاهد التى رأيناها فى فيلم
(حديقة العصر الجوراسى Jurassic park) لكنها حقيقية جداً
هذه المرة ..

الأرض ترتج ..

إن هذه هى (أرض العظايا) بالمعنى الحرفى للكلمة ..

إن هذا الوحش هو (العظاية الطاغية) أو (تيراتوسورس
ركس) أما الوحش الآخر الذى يواجهه من الجهة الأخرى
للمستنقع فهو .. (ستيجوساورس) .. ليس آكل لحم إن لم تخنى
الذاكرة لكنه يدوس كأي شيء ثقيل آخر ..

هنا رأينا تلك الوحوش الشيطانية الأصغر حجماً تتواشب
من جانبى الأشجار .. الطيور المفترسة السريعة
(فيلوسيرايتور) ..

قالت (سلمى) :

- « هل جننا هنا كى نرى فيلم (حديقة العصر الجوراسى)
على الطبيعة ؟ »

- « لا بد أن هذا عالم لم تنقرض فيه الديناصورات .. »

- « أعتقد أن الرحيل صار واجباً .. هذا عالم لن يعلمنا أى شيء وسوف يتم التهامنا خلال دقائق .. »

قلت فى شيء من السخرية وأنا أمسك بيدها :

- « هل تغيرت ؟ كنت أعرف امرأة تصر على أن تجرب كل عالم تراه حتى لو كان مليئاً بمرضى الطاعون .. »
- « لا بد من بشر أولاً .. هذه نقطة البداية .. »

كانت تضغط على أزرار الجهاز :

- « 199-ب - ثم .. »

صحت فى جنون وأنا أرى أحد هذه الوحوش السريعة الشرسة وثب علينا من أعلى كأنه شيطان :

- « ماذا تفعلين بالله عليك ؟ ربع ساعة كى ؟ »

- « صبراً .. إن .. »

فى هذه اللحظة ارتطم ذيل السحلية المخيفة بنا فطرنا فى مياه المستنقع .. صحت فى رعب :

- « لا تدعى الجهاز بيتل ! لا يمكن أن نبقى هنا للأبد ! »

رفعت يدها لأعلى فوق مستوى الماء وراحت تضغط على
الزر :

- « 18 . 18 »

صرخت فى هلع :

- « انتظرينى ! أنا لم أمسك بيدك بعد ! »

لا أريد أن ترحل وحدها لأجد أنسى وحدى فى هذا العالم ..
معاناة شنيعة لمدة خمس دقائق إلى أن يهضمنى أحد هذه
الكائنات لأسهم فى عملية التطور .. لن أعيش أكثر من هذا بأى
حال .. كيف استطاعت الثدييات صغيرة الحجم أن تنجو من عالم
كهذا ؟ إنها لمعجزة فعلاً ..

تمسكت بساعدها بينما هى تضغط زر الإبخال ..

فى اللحظة التى وثب فيها ذات الوحش الذى أسقطنا فى الماء ..
وثب علينا وكان قادمًا بسرعة وحماس ..

يقتررب .. يقتررب ..

ثم تلاشى المستنقع من حولنا ..

وكانت هذه أقصر فترة نقضها في أي عالم منذ بدأتنا
الرحلة ..

كان العالم (199 - ب - 18) قائماً كما هي العادة ..

لم يكن المنظر بهيجاً عندما تم التجسد ..

بالواقع لم يكن هناك منظر على الإطلاق ..

لقد كان كل شيء أسود .. لا يوجد ضوء من أي
نوع ..

قدرت أن هناك خطأ ما .. وأن التجربة صارت إلى
فشل ..

قلت بصوت مبحوح :

- « (سلمى) .. أنا أصبت بالعمى ! »

قالت بذات الصوت :

- « لا .. نحن في مكان مظلم .. هذا واضح .. »

سرني هذا ، فلو أنها قالت إنها ترى بوضوح لمت هلغاً .. لكن
هذا لم يحل المشكلة .. من الوارد دوماً أن يكون الانتقال قد
أعمالنا معاً ..

مندت يدي أتحنس العالم من حولي .. يجب أن ألمس شيئاً ..
يجب أن تصطدم يدي بشيء .. مستحيل ألا يكون هناك سوى
ظلمة تليها ظلمة ..

فجأة سمعت ذلك الصوت الخشن يصيح :

- « من أنتما ؟؟؟ (نصار) ! (نصار) !! »

ثم سمعت صوت رجل يتكلم بلهجة ريفية قليلاً :

- « أوامرك يا (محسن) باشا .. »

- « من هذان ؟ وكيف مرأ ؟ ألم تسمع صوت الخطوات ؟ »

بدالى الأمر مأثوفاً .. لكن هذا الظلام الدامس ..

صوت (نصار) يقول :

- « معذرة يا باشا .. »

تكلمت (سلمى) باعتبارها الأكبر سنًا والأسرع بديهية :

- « نهارك حليب ياسيدى .. »

- « ماذا تقولين ؟ »

- « أعنى صباح الخير .. »

- « هل أنت مخبولة ؟ »

قلت أنا وقد بدا لى الأمر مألوفاً إلى درجة تثير الغيظ :

- « معذرة .. كنا نبحث عن موظف هنا و ... »

- « ليس هنا .. والآن اخرجنا ! »

سمعت صوت (نصار) يهتف :

- « هذا الجهاز فى يد المرأة ياسيدى .. لا أعرف

ما هو .. »

- « هاته ! والآن مع السلامة ! »

هكذا شعرت بيد غليظة تقتادنى فى الظلام .. لم أدر ما يحدث

ولم أقدر على الاعتراض .. ثم شعرت بأننى أجتاز باباً ..

وسمعت صوت (سلمى) يهمس فى إرهاب :

- « هل تفهم أى شىء ؟ »

قلت لها :

- « غرفة رئيس المباحث ! هل نسيت ؟ بدأتنا استعمال

هذا الجهاز اللعين للهرب من مكتب رئيس المباحث فى كوكبى ..

لقد حاصرنا بالأسئلة ففررنا من مكتبه .. ما حدث بعد ذلك

هو أننا نجد نفسينا فى غرفة رئيس مباحث كل كوكب

نبلغه .. »

- « ياسلام ! ولماذا لم يحدث هذا فى أرض العظايا ولا أرض

المغول ؟ ذات مرة وجدنا أننا فى الصحراء ومرة أخرى وجدنا

أننا فى نيويورك ! »

- « أعتقد أن هذا يتعلق بدوران الكوكب حول محوره

أو شىء من هذا القبيل .. هذا الكوكب يدور بذات سرعة

الأرض - أرضى أنا - أو هذا هو التفسير الوحيد الذى يخطر لى

الآن .. »

قلت لها ، وأنا أتحسس الطريق :

- « لكن لا أفهم .. لماذا لا أرى ؟ لماذا لا يعطونهم ويتصرفون

كأنهم يرون كل شىء ؟ »

قالت فى قلق :

- « ثمة احتمال لا بأس به أننا أصبنا بالععى فعلاً ! »

كنت أجن هلعاً .. كنت أعرف أن هذه التجارب الشيطانية القائمة على الارتحال عبر الأبعاد لابد أن يكون لها أثر قاتل .. تذكر فيلم (الذئبة) لـ (كروننبرج Cronenberg) حينما استرجت جزيئات الرجل مع جزيئات الذئبة ليكونا كائناً واحداً جميلاً يقىء على الطعام قبل أن يأكله ..

- « وماذا نفعل ؟ هل نطلب العون ؟ »

- « انتظر قليلاً .. يجب أن نجد تفسيراً .. »

كنا الآن نتحسس طريقنا عبر ممرات قسم الشرطة .. يدها فى يدي ويدي الأخرى على الجدار .. لابد أن هناك دائرة منهم تحيط بنا الآن كأنهم يشاهدون فقرة فى السيرك ..

اصطدمت بيد شخص مفرودة فتراجعت على الفور ..

هنا خطر لى خاطر رهيب ..

إبه يتحسس طريقه مثلى بالضبط .. وإلأما السبب الذى يدعو المرء إلى فرد كفه أمامه ؟ ما معنى هذا ؟ هل نحن فى كوكب كفيف ؟

الشبيه الكونى بوادى العميان فى قصة (ه . ج . ويلز) الشهيرة ؟
إن لماذا أصبنا نحن بالعدوى ذاتها ؟ كان يجب أن نتمتع ببصرنا
وبالتالى نصير ملوكاً ؟

همست لها وأنا أتوقع أن هناك من ينصت بامعان :

- « أعتقد أنهم لا يرون مثلنا ! »

- « يا لها من فكرة ! تذكرنى بنكتة الزوجة الأمريكية التى
تنصح زوجها بأن يكف عن احتساء الخمر لأنه صار مهزوزاً !
إن الكفيف يفترض أن العالم أصيب بكارثة جعلته مظلماً .. هناك
حل أسهل هو أننا فعلاً كفيفان كخفاشين .. »

- « والسبب ؟ »

- « لا أعرف .. »

كنا نتكلم ونحن نواصل تحسس طريقنا .. سوف نحتاج
إلى دهر حتى نخرج من هنا .. لماذا لا يساعدنا واحد من
هؤلاء ؟

صحت بصوت عال :

- « من فضلك ساعدنا .. نحن لا نرى .. »

لحظات ثم شعرت بيد قوية تطبق على معصمي مع صوت
يقول :

- « لماذا ؟ هل هناك مشكلة في السمع ؟ »

- « لم نكتسب بعد هذه الحدة السمعية .. إنها تأتي مع
الوقت .. »

- « إلى أين ترغبان الذهاب ؟ »

- « نريد الخروج من هنا .. »

لم يتكلم هذا الشهم ، لكنه شرع يجذبنى ورائه وأنا أجدب
(سلمى) .. أشعر بأننا نمشي في ممر طويل مزدحم خائق
الرائحة مزدحم بالأنفاس والعرق .. ثم نهبط درجات مهدمة
خربة .. ثم ممر آخر .. أعرف هذه الرائحة (الحكومية)
التي هي مزيج من الأثاث القديم والعرق والبنائيات الخربة
وأكوام الملفات والفنران ورائحة دورة مياه لم يتم إصلاحها منذ
قرون ..

فجأة شممت رائحة الهواء الطلق .. إننا في الخارج
فعلاً ..

السواد في كل مكان من حولي .. أشعر بأنني أختنق .. أريد
ضوءاً .. ضوءاً واحداً ..

قلت لـ (سلمى) :

- « نحن في ورطة .. والألعن أننا لا نملك الجهاز .. إنه مع
هذا الضابط .. ربما نعود ونتوسل إليه أو نقتعه بحيلة ما ، لكن
لا بد أولاً من أن نرى .. »

- « لا تأمل في هذا .. »

ثم فكرت قليلاً ، وأضافت :

- « ربما كان علينا أن نجد مستشفى أو عيادة طبيب .. لا بد
أن هناك تفسيراً لما أصابنا .. »

رحنا نتحسس طريقنا بعض الوقت مستندين إلى جدار رطب
مهدم .. هذا ليس عدلاً .. لا بد من فترة راحة ما بين العالمين ..
لم أكن قط ممن يسافرون إلى بلد جديد فيضعون حقائبهم ثم
يصيحون : هيا بنا نغم بجولة !

كلا .. لا بد من أن أستريح قليلاً وأستجمع ذاتي .. لا بد من
فترة تصفو فيها أفكاري وأعرف من أنا .. لا تطالبني بأن آتي
من أرض العظايا لأجد نفسي فوراً في هذا العالم أتحسس طريقتي
في الشوارع ..

وهنا لاحظت شيئاً ..

ملت على (سلمى) هامساً :

- « ألم تلاحظي أننا لم نسمع أى محرك سيارة ؟ لم نسمع أى بوق ؟ هذا غير معتاد فى القاهرة ما لم تكن هذه القاهرة لم تعرف السيارة بعد ! »

2 - فحص عيون ..

نتحسس طريقنا فى الشارع ..

سألت أحد المارة عن أقرب مستشفى ، فلم يتطوع بل أن يقادنا .. لم يعرض أى شيء .. فقط قال لى فى لهجة عملية :

- « هناك واحدة على بعد خمسين متراً .. ثم يمين .. يسار فى يمين .. »

معلومات قيمة فعلاً ..

كان الأمل معدوماً فى أن نجد من يحل مشكلتنا هناك .. هل تصارح طبيب العيون بأنك كنت فى تجربة انتقال عن بعد ، وأن جزيئاتك تبخرت ثم تجمعت فى مكان ما ؟ وأن السبب فى فقدان البصر على الأرجح خطأ فى استعادة الشبكية ؟ طبعاً مستحيل ..

الأمل الوحيد الحقيقى بالنسبة لى هو أن يكون هذا عمى مؤقتاً .. ربما تعرضنا لإضاءة زائدة أو أشعة كونية ما أدت لهذا العمى المؤقت .. اعتدت فى طفولتى أن أنام عندما أكتشف خللاً

ما فى جسدى ، وكنت أفئق لأجده قد اختفى على الأرجح .. ليت هذا صحيح ..

« المستشفى هنا ! المستشفى هنا ! »

يدوى الصوت عبر مكبرات الصوت ..

شئ غريب ! لو كنت أرى لتبادللت النظر مع (سلمى) .. لم أسمع قط عن مستشفى يتم النداء عليه فى مكبر الصوت كأنها طماطم فى سوق .. غريب هذا الحماس ..

لكن برغم هذا شعرت بامتنان شديد لصاحب هذه الفكرة .. بهذه الطريقة يمكننا أن ندنو .. لقد فقدنا أشياء كثيرة ليس من بينها حاسة تحديد اتجاه الصوت ..

« المستشفى هنا ! المستشفى هنا ! »

هناك إفريز عال .. من الوارد جدًا أن ننزل من عليه لتطيرنا سيارة مسرعة برغم أننى لا أسمع صوت أى محرك .. لهذا طلبت من أحد المارة أن يساعدنا على الاقتراب من الصوت ..

قال فى دهشة :

- « يبدو أن سمعنا ليس على ما يرام .. »

- « نخشى السيارات المندفة .. »

قال فى سخرية :

- « ليت الأمر كذلك .. »

نقترب من الصوت أكثر فأكثر ، حتى صار من الممكن أن نسمع صوت المتكلم من دون مكبر الصوت .. ثمة حقيقة فيزيائية لا أذكر تفسيرها تقضى بأن من يسمعون صوت المطرب خارجًا من المذياع يسمعونه أسرع ممن هم فى ذات القاعة معه .. أعتقد أن الأمر يتعلق بسرعة الموجات الكهرومغناطيسية وسرعة الصوت .. على كل حال نحن نسمع صوت المتكلم فى الميكروفون فيخيل لنا أن صدى صوته يسبقه ..

قلت لمن أتوهم أنه أمامى :

- « هل هذا هو مدخل المستشفى ؟ »

قال دون أن يبعد مكبر الصوت عن فمه :

- « نعم .. الاستقبال فى نهاية الممر .. »

- « هل تعرف أين قسم أمراض العين ؟ »

- « لا يوجد عندنا .. إن أمراض العين جزء من قسم الجراحة العامة ! »

هكذا دخلنا إلى ذلك العمر الطويل .. وفي نهايته كما بدا لنا سمعنا صوت ممرضة تسألنا عما نريد .. كانت تلوك قطعة من اللادن وترمقنا في استمتع .. صوتها يدل على أنها ترمقنا في استمتع ..

- « نحن مصابان بالعمى .. »

عادت تسألنا بلهجة روتينية :

- « آلام في العين ؟ أورام ؟ »

- « لا نعرف .. فقط نريد أن يتم فحصنا .. »

كنت أسمع صوت طبيبة شابة تملئ تشخيصها في مكان ما :

- « كساح .. كساح .. هذه الحالة كذلك كساح .. التهاب

رئوى .. »

ثم جاء صوت الممرضة الأولى :

- « هنا حالتان ياد . (هالة) .. يريدان من يفحصهما .. »

شممت رائحة عطرية نفاذة .. يد باردة لكن من الواضح أنها يد أنثى تتحسس وجهي .. تتسلق ملامحي ببطء حتى وصلت إلى عيني .. إنها تضغط .. تغرس أظفارها في كرة عيني والجفنين .. ثم تضغط بقوة على المحجر بظفر الإبهام .. هذا مؤلم !

صحت محتجاً :

- « هذا مؤلم ! »

لكنها لم تعلق .. ويبدو أنها تركنتي لتتولى ذات الأمر مع (سلمى) .. سمعت (سلمى) تصيح في ألم .. ثم سمعتها تقول :

- « لا مشاكل .. إنها تلك المشكلة المعتادة لمن يأبى التصديق ..

أعطيها بعض المسكنات .. »

صحت في غيظ :

- « هل هذا فحص عيون ؟ لسنا بصدد تحسس بطيخة إن

كأت ناضجة أم لا .. أقول لك إننا فقدنا البصر .. »

- « وأنا أقول لك إنكما بخير .. أنت لن تعلمنى مهنتى .. »

وسرعان ما توارت .. أعنى أن صوتها تلاشى ..

قالت (سلمى) وقد تسارع تنفسها كأنها موشكة على الإصابة بالهستيريا :

- « هذا لا يطاق .. نحن فى مأزق حقيقى .. مكفوفان فى عالم غريب لا يبالي بنا .. وهم مخابيل كذلك .. العالم الذى يفحص العين عن طريق تحسسها كأنها كبد أو طحال هو عالم مخبول .. »

قلت لها :

- « لاحظى أننا لم نعرف بعد نقطة الاختلاف عن عالمنا .. هل لأن هذا العالم بلا سيارات ؟ هل لأنهم مخابيل ؟ هل ؟ »
كنت قد كونت استنتاجاً رهيباً لكنى لم أصرح به لأحد .. حتى لنفسى ..

3- جانعان ..

من جديد نتحسس طريقنا فى الشارع ..

الآن أشعر بهذا الثقيل المألوف فى معدتى .. إننى جانع ! لابد أن (سلمى) تشعر بالشيء ذاته .. آخر وجبة تناولناها كانت فى الصحراء مع (جمشيد) فى بعد آخر حول شمس أخرى .. فترة أطول من اللازم ..

سألته فى قلق :

- « هل تعتقدين أننا فى الليل أم النهار ؟ »

- « أعتقد أننا فى الليل لم أشعر بأشعة الشمس الحارقة قط .. فى الواقع الطقس بارد فعلاً .. »

نعم .. البرد .. الإحساس الرئيس منذ جننا هنا ..

- « والآن أنا جانع فماذا نأكل وكيف ؟ »

قالت وصوتها يبتسم :

- « أنت تعرف أنتى أخفى بعض أوراق العملة معى فى كل مكان نقصده .. لدى عملات مصرية وعملات من كوكبى وعملات من أرض المغول .. سوف نجرب .. »

- « طبعاً سوف نصطدم ببائع يقول لنا إن هذه عملات مزيفة لا وجود لها .. »

- « كما يحدث في كل كوكب نقصده .. لكن دعنا نجرب .. »

كنا الآن نشم رائحة طعام .. رائحة كبد محمرة أو لحم مشوى .. لا يهم .. لقد صرنا جائعين إلى حد أن تمييز الرائحة صار عسيراً .. هذه رائحة طعام وكفى .. أى إتنا - بلا فخر - تحولنا إلى ضبعين جائعين ..

وكأى ضبعين يحترمان نفسيهما ، مشينا وراء الرائحة .. فلم يبق إلا أن نبصص بذيلينا ..

الرائحة تتزايد .. تتزايد ..

الآن هي أشد ما يكون .. هناك مروحة موجهة نحونا لا تكف عن ضخ هذه الرائحة الشهية .. الواقع أنها أقوى من اللازم حتى إتنا وجدنا أننا غارقان في الدخان .. سعلنا .. سعلنا حتى كدنا نبصق رنتينا ..

سمعت صوت من يقول بلهجة فظة :

- « كم شظيرة ؟ »

- « أريغاً .. »

- « خمسة جنيهاً .. »

على الأقل هم هنا يتكلمون بلغة الجنيه .. وسعر خمسة جنيهاً لأربع شطائر ليس بالسعر السيئ .. ربما كان هذا الكوكب يشبهنا في هذه النقطة على الأقل ..

ومددت يدي المتعثرة بورقة مالية كبيرة الحجم .. استغرق البائع وقتاً أطول من اللازم حتى جذبها من يدي .. ثم سمعته يقول في دهشة :

- « مائة جنيه ؟ ألا تجد معك بعض الفكة ؟ »

- « نعم .. ليس معي غيرها .. »

ثم ملت على (سلمى) لأهمس :

- « هل كنت تحتفظين بمائة جنيه معك بين الأبعاد ؟ »

- « لا أعتقد أنه كان معي هذا المبلغ .. إنها تنويغات من

العملات بين عشرة جنيهاً وخمسة جنيه .. »

- « إنني كيف أعتقد أنها مائة جنيه ؟ »

« الاختلافات بين الكوكبين .. لعلمهم يطلقون على عشرة الجنيات اسم (مائة جنيه) هنا .. »
رائحة الطعام قوية جداً جداً .. أقوى رائحة شممتها فى حياتى ..

شعرت فى يدي بالرجل يدس العملات الورقية .. أوراق طوى بعضها بالطول وبعضها بالعرض وبعضها مثنى على طريقة (أذن الكلب Dog ear) الشهيرة ..

« معك خمسة وتسعون جنيتها .. »

ثم شعرت فى يدي بلغافة ساخنة واضح أنها دسمة .. ثقلى مطمئن بعدك بساعات من الشبع ..

ابتعدت مع (سلمى) إلى أن اصطدمنا بجدار . هكذا جلسنا جواره فى بساطة كالمسولين ، وفتحت اللغافة .. ناولتها شطيرتين ساخنين وتحصمت شطيرتى .. إن بها مزيجاً غريباً من قطع اللحم .. لحم خشن ولحم ناعم .. لحم زلق ولحم قاس ..

هتفت (سلمى) فى دهشة :

« ما هذا ؟ »

« أعتقد أنه لحم رأس .. فى هذه الحالة تكون الشطيرة خليطاً من لحوم عدة .. »

فى تقزز هتفت :

« أنا لا أكل هذه الأشياء ! »

« سوف تحبينها .. أنا أحبها وبالتالي أعرف أنك ستحبينها .. تذكرى أننا لا نملك ترف التقزز .. فقط أرجو ألا يكون هذا الكوكب من أكلة لحم البشر .. »

« الله يقرئك ! »

قضمت قطعة كبيرة ، ثم قلت بفم ملء :

« هل رأيت كيف يصنف النقود عن طريق ثنى أوراقها ؟ فى فيلم (المتهور daredevil) الذى كان سلسلة (كوميكس) أمريكية ناجحة ، كان البطل كفيفاً ؛ لذا كان يطوى العملات بهذه الطريقة ليعرفها بمجرد اللمس .. هكذا كان يميز المائة دولار من العشرة دولارات .. إلخ .. نفس الشيء يكرره الرجل هنا .. هل تعرفين لماذا أعتقد أننا أعطيناه مائة جنيه ؟ لأن الورقة كانت مفردة .. هذه هى علامة المائة جنيه .. »

- « ماذا تعنى ؟ »

- « أعنى ما فهمته .. هذا الباع كيف ! »

- « ولكن .. »

قلت فى استمتاع :

- « ليس هذا فحسب .. أكره أن أكون عبقرياً طيلة الوقت ،

لكنها الحقيقة .. كل شيء يدل على أن هذا الكوكب يعج
بالمكفوفين ! »

4- أرض العميان ..

فى الساعة التالية رحنا نناقش أبعاد هذا الاستنتاج
الرهيب ..

كانت القصة واضحة بالنسبة لى تماماً ..

- « لماذا يمشى الناس وهم يمدون أيديهم أمامهم ؟ لماذا
لا يتطوع أحد لمساعدة اثنين مكفوفين إذا كان الجميع مبصرين ؟
لماذا تنادى المستشفى معلنة عن نفسها ؟ لأن أحداً لا يمكنه
معرفة موضعها من غير صوت وهذا هو التدبير الوحيد الممكن
ليعرف الجميع أين هى .. كيف يمكن فحص العيون فى مجتمع
من المكفوفين ؟ لا مفر من تحسس العين بالأصابع .. بل ما أهمية
هذا الفحص أصلاً ؟ »

قالت (سلمى) بصوت يدل على الذهول :

- « لهذا لم ينظر أحد بجديّة لكلامنا عن العمى .. هنا تنحصر
أمراض العيون فى الأورام والألم .. كل من قلنا له إننا لا نرى
قال إننا مستجدان أو مصابان بالصمم .. لابد أن سمع هؤلاء
القوم بلغ درجة عالية جداً تتيح لهم الحركة بحرية .. »

قلت وأنا أسترجع شريط مغامرتنا :

- « باتع الشطائر لا سبيل ليعرف الناس مكانه إلا الراحة .. لهذا غرفنا فى سحابة من الدخان ورائحة الطعام لأنه يعتمد على المراوح التى تنشر الرائحة .. »

- « ولهذا لا توجد سيارات .. كيف توجد سيارات أو طائرات فى عالم لا يرى ؟ هذه الأشياء لا توجد إلا فى السينما .. (آل باتشينو) يقود سيارته مسرعاً وهو كفيف ، و (عادل إمام) يفعل الشيء ذاته بطائرة ! »

- « وطريقة الأوراق المالية المطوية التى تتيح تعرفها .. »

- « كل شيء واضح .. »

- « لا .. ليس واضحاً .. ربما كان هذا عالماً من العميان ، لكن كيف تفسر أننا أصبنا بالعدوى ؟ »

كان هذا هو السؤال المهم حقاً .. السؤال الذى يساوى ملايين الجنيهات .. الأعور فى بلاد العميان يصير ملكاً .. فلماذا لا نبصر نحن ؟

- « هناك احتمال وجود فيروس يسبب هذه الحالة .. »

- « لا توجد فيروسات تعمل بهذه السرعة .. لاحظ أننا وصلنا هنا ونحن لا نرى .. »

حقاً كان الأمر أقرب إلى لغز كبير ..

إننا فى عالم لا يرى .. عالم يعتمد على الصوت والرائحة واللمس .. ومن الواضح أن هؤلاء القوم بلغوا مكانة متقدمة فعلاً فى هذا الصدد .. من الواضح أن الحياة مستمرة بلا مشاكل ..

لكن ما زال اللغز قائماً ..

قال لنا عابر السبيل وهو يضغط على يدي :

- « من هنا .. فندق صغير لكنه نظيف .. سوف تكلفكم الليلة خمسين جنيهاً .. »

- « لا بأس .. »

وشكرته بحرارة .. ثم جذبت (سلمى) ومضينا نشق طريقنا فى الاتجاه الذى أطلقتنى نحوه .. أتعثر وأنهض .. فى عالم

العميان هذا كان من المفترض أن تكون شوارع القاهرة أكثر نعومة وأفضل رصفاً .. لكن الحفر والمطبات المعتادة كما هي ..

أمد يدي أمامي فأجد مدخلاً ..

أمشى متعزراً .. في نهاية العمر أصطدم بمنضدة .. لا بد أن هذا موظف الاستقبال ..

طبعاً كنت قد ثبتت جنبها إلى نصفين متساويين .. هكذا ارتفعت قيمته بمعجزة ما لتصير خمسين جنبها .. هذا غش لا شك فيه ، لكننا مضطران أولاً ، ثانياً أنا أغش كائنات فضائية في مجرات أخرى ! لا يمكن أن يكون الحافظ الأخلاقي ملتهباً لهذا الحد !

قال لي الموظف ذو الصوت الغليظ :

- « لدى غرفة تناسبكما .. إنها مريحة ورائحتها طيبة .. »

طبعاً .. في عالم كهذا لا يكون للجمال معنى .. الراحة والرائحة هما الأهم ..

- « لكنى أريد توقيك ! »

ما معنى هذا ؟ ماذا يمكن أن يفعل بالتوقيع ؟

فهمت الأمر عندما شعرت به يمسك برأسي .. يلصق بأذني شيئاً لزجاً بارداً .. ثم يقول :

- « شكراً ! »

إبه قد أخذ طبعة من صوان أذني على الصلصال .. طريقة لا بأس بها .. طبعا لا لزوم للبصمات هنا ؛ لذا أخذ طبعة مجسمة من أذني وبالتالي يمكنه أن يتحسسها متى أراد ليعرف إن كنت أنا ..

الظلام .. الغرفة باردة بشدة .. أعرف من صوت الصدى أنها ثلاثة أمتار في أربعة ..

تمشى (سلمى) في الظلام إلى أن تلمس الباب فتغلقه .. لا تتعبى نفسك .. فلو كان أحدهم متوارياً في الغرفة فقد حبسناه معنا !

تقول وهي تلهث :

- « أين الفراش ؟ ساموت إن لم أتم بضع ساعات .. »

قلت وأنا أخفف من ثيابي :

- « سيكون نومًا شنيعًا .. كيف يكون نوم لا تفيق منه لترى النور ؟ ظلام في ظلام في ظلام .. أن ينام المرء ويصحو فيجد الظلام ما زال مطبقًا على الكون .. هذا كابوس .. »

قالت وهي تتنهد بصوت عال :

- « سوف نصحو من نومنا لنجد أن الظلام ما زال مستمرًا .. هذا شنيع فعلاً لكننا سنعتاده .. »

وتحسست المكان حتى وجدت الفراش فرقدت عليه .. الحمد لله أن البرد شديد .. لو أضيف الحر لهذا لاختنقت فعلاً ..

(سلمى) ترقد على الفراش جوارى فين من ثقلها ..

تقول هامسة :

- « لا أصدق أننا فقدنا نعمة البصر بهذه البساطة .. »

- « أنا كذلك .. يخيل لى أننا سننام ونصحو لنجد أننا فى

ضوء النهار .. »

- « لبيت الأمر كذلك .. »

- « كانت تذكرة المغادرة معنا لكن ذلك الضابط انتزعها .. »

- « سوف نمتردها .. سوف نذهب إليه غدًا ونتوسل إليه .. سأقول له إن الجهاز مخصص لتنظيم ضربات القلب وإنسى سأموت لو لم أسترده .. ذات الحيلة القديمة .. »

هنا دوى صوت يقول فى الظلام :

- « هذا كل شيء يا سيدى ! هل ترغب فى بعض التبغ لتمضغه ؟ »

وثبنا مترين فى الهواء .. وحينما استعدت روعى صحت :

- « من .. من أنت ؟ »

جاء الصوت فى الظلام :

- « أنا خادم الغرف يا سيدى .. كنت أنظف دورة المياه الملحقة !! »

كما توقعت من قبل .. يمكن أن يكون هناك ستة معنا فى الغرفة ونحن لا نعرف !

صحت فى غلظة :

« لا أريد أى شيء . والآن اتصرف ! »

ونهضت أتحمس طريقي نحو الباب ومددت يدي أفتح
المزلاج .. وبعد ثوان شعرت بذلك الجسد يعبر الفرجة
خارجًا .. هذه المرة لم أغلق الباب إلا بعدما تأكدت من
أنه لا يوجد آخرون .. ربما أجد الجيش الصينى فى الشرفة
هذه المرة ..

عدت للفراش وتمددت عليه .. كاتت (سلمى) تهتز من
الضحك حتى تقطعت أنفاسها .. فقلت مغضبًا :

« لا أرى ما يضحك فى هذا كله .. نحن من دون بصر
هشان تمامًا .. شديد الضعف .. إنه العرى الحقيقى وليس عرى
فقدان الثياب .. لأسباب تتعلق بالهشاشة لم يأكل (طه حسين)
أمام أحد فى حياته قط ، ولم يغادر (أبو العلاء المعرى)
داره .. »

قالت وهى تكتم ضحكاتهما :

« هل لاحظت ما قال ؟ هنا يمضغون التبغ ! »

- « وما فى ذلك ؟ كان لى جد يمضغ التبغ طيلة الوقت .. كل
البحارة يفعلون ذلك .. لا أعنى أن جدى كان بحارًا .. »

- « لماذا لم نشم دخان لغافة تبغ منذ جننا ؟ »

- « لأن هذا الكوكب يمضغ أهله التبغ .. هلاً كفتت عن التذكى
ونمت ؟ إننى مرهق بحق .. »

وكنت أتمنى أن أطفئ النور كطقس لا تنتهى الليلة من دونه ..
نكن لا نور هنالك .. هذا يجعل الفارق بين الصحو والنوم باهتًا
غير واضح ..

لكن للإرهاق قواتينه على كل حال ..

فقط وأنا أغادر عالم الأحياء إلى عالم الموت الأصغر سمعت
(سلمى) تهمس مفكرة :

- « لا راحة تبغ فى أى مكان .. »



5- فى الشرففة ..

صباح أسود ..

هكذا يمكن تلخيص الموقف ..

تفتح عينيك على ما أغمضتهما عليه .. واللون الأسود الكريه
فى كل مكان ..

كانت (هيلين كيلر Keller) الكاتبة الأمريكية الصماء البكماء
العمياء تقول - بعدما تعلمت النطق - إن أهم الحواس هى
السمع .. السبب أننا فى الظلام نصاب بالهلع لو لم نسمع صوتًا
مألوفًا ..

الآن أفهم هذه الكلمات ..

لو لم أسمع (سلمى) بجوارى تقول (نهارك حليب)
لجننت ..

كيف عرفنا أن هذا نهار ؟ لا يوجد أى دليل .. فقط هى
الساعة البيولوجية فىنا تخبرنا بذلك .. وهى ساعة لا يمكن أن
تتق بها على كل حال بعد كل هذا السفر .. جرب السفر إلى

أستراليا ثم تكلم عن دقة هذه الساعة .. إن ما يدعى (تأخير
النفثات Jet lag) يجعلك عاجزًا عن تقدير الوقت الصحيح
تمامًا ، فما بالك برحلة بين المجرات ؟

فجأة سمعنا ذلك الدوى ، وارتجت الحجرة عدة مرات ..

صاحت فى ذعر :

- « ما هذا ؟ »

قلت وأنا أثب من الفراش :

- « أعتقد أنها الحرب .. هذا العالم يجتاز حربًا .. »

- « حرب بين عميان ؟ سيكون هذا مسليًا .. »

وهرعنا ملهوفين نتحسس طريقنا إلى ما شعرت بأنه الشرففة ..
نعم هى شرففة .. هناك شيش ومزلاج مددت يدي أفطحهما ..
وقلت لها فى توتر :

- « بعض الشرففات يكون لا وجود لها . لا تخطى إلى الداخل
فنحن لا نعرف أى شىء على الإطلاق .. »

هنا دوى الانفجار من جديد .. شعور كأن الحجارة ترتطم ببعضها فى أجواز السماء .. يمكن القول إنه رعد وإن كنت غير واثق ..

وقفنا معاً .. نشعر بالهواء البارد يضرب وجهينا .. لا نرى أى شىء آخر ..

نرفع رأسينا نحو ما اعتدنا أنه السماء ..

فجأة رأيته ..

ذلك اللسان الأبيض البراق يشق السماء السوداء .. يتحرك كأنه مخلب عملاق متجهاً إلى الأرض وفى هذه المرة رأيت القاهرة .. القاهرة تتوهج فى ضوء البرق .. الضوء الأزرق البارد المعقم يرسم ظلالاً طويلة على كل شىء .. مع ذلك التأثير (الستروبوسكوبى stroboscopic) المعروف .. عندما يتوهج الضوء لفترة قصيرة تبدو الأجسام المتحركة ساكنة ..

هذه هى القاهرة كما عرفتها وكما تراها من قمة (المقطم) ..

البنائيات .. المآذن .. الشوارع .. كل شىء كما هو ..

كنا نقف فى شرفة عادية جداً تطل على شارع مزدحم ..

ومن جديد ساد الظلام ..

قلت لها همساً :

- « إنه البرق فعلاً .. »

- « وهل نحن فى النهار أم الليل ؟ »

- « لا أعرف .. »

هنا جاء الدوى والارتطام .. البرق ثم الرعد كما تعلمنا منذ عرفنا كيف ننطق الكلمتين .. عد المسافة بين البرق والرعد لتعرف إن كانت العاصفة قادمة أم تبتعد .. لو ازداد العد فى كل مرة فالعاصفة تبتعد ..

من جديد هوى لسان آخر من ذات الموضوع ليضرب ذات البقعة السابقة ..

هذا غير معقول ! هذا خطأ .. البرق لا يضرب ذات المكان مرتين أبداً .. هذه قاعدة أخرى تعلمناها فى صغرنا ..

حتى على أرضنا تغير العالم كثيراً جداً .. كنا نرى البرق ونسمع الرعد ونرى قوس القزح في طفولتنا كثيراً .. اعتقد أنني لم أر هذه الظواهر منذ ثلاثين عاماً .. اعتقد أن الشباب لم يروا هذه الأشياء قط .. وماذا عن الهداهد ؟ الهداهد الجميلة التي كنت أراها فوق الأشجار في طريقى للمدرسة ؟
لم تعد الطبيعة طبيعة كما كانت ..

لكن هذا البرق غريب الأطوار .. لقد رأيت بقعة من النار تتوهج في آخر بقعة نزل فيها .. هذا حريق .. البرق الذي ينزل في الموضع ذاته مرتين قادر على أن يحرق .. هذا منطقي ..
لكن النار خبت سريعاً .. لا أعرف السبب لكنى رأيتها تزول ..

ومن جديد ساد الظلام ..

همست (سلمى) في انفعال :

- « لا أفهم ما رأيناه لكن هناك شيئاً واحداً فائق الأهمية .. نحن لسنا مكفوفين ! »

فطنت للحقيقة فنظرت لها في الظلام .. لا أراها ولا تراسى لكنها تعرف يقيناً أنني أنظر لها ..

قلت في ذهول :

- « هذا حقيقي .. وهذا معناه .. »

- « معناه أن هذا عالم مبصر .. لكنه عالم بلا ضوء ! »

لوي

6 - قيس ضوء ..

أعتقد أننا كنا الآن في لوي الفندق .. لا أعرف بالضبط ..
فقط هو مكان صاحب .. أرجو ألا يكون غرفتنا وقد دخلها 76
واحداً ..

قلت لـ (سلمى) ونحن نتحسس طريقنا في الظلام :

- « لا بد من شخص يجيب عن أسئلتنا .. إن الأسئلة كثيرة
بحق .. »

- « لا تعتمد على هذا .. من تسأله سيعتبرنا مجنونين
لا أكثر .. أن تسأل هنا عن الظلام كمن يسأل في عالمنا عن
معنى كلمة (شمس) .. »

ثم فكرت قليلاً وأضافت :

- « هل تعرف رأيي ؟ أعتقد أن هذا الكوكب لا يعرف النار
كذلك .. تذكر ما قاله خادم الغرفة عن مضغ التبغ .. لماذا ؟
لأنهم لا يعرفون كيف يُدخن .. »

- « احتمال واه .. الشطائر التي أكلناها كانت ساخنة ..
لو كنت تعرفين طريقة غير النار لتسخين الطعام فإبنتي أرجو أن
تخبريني بها .. »

- « كذلك لا كهرباء .. »

ثم أضافت وقد تذكرت نقطة جديدة :

- « لا شمس .. لهذا كان دور الطبيبة في المستشفى يقتصر
على فحص حالات الكساح .. لا بد أن كل هؤلاء الأطفال الذين لم
يروا الشمس قط قد تحولت عظامهم إلى مكرونة مسلوقة ..
دعك من أن عالماً بلانور هو عالم غير محتاج إلى طب
العيون أصلاً .. فقط عندما تصاب العين بالسرطان يغدو الطب
ضرورة .. لهذا تم ضم أمراض العيون إلى تخصص الجراحة
العامة .. »

كانت الاحتمالات تزداد قوة .. القصة تغدو منطقية ..

لكن كيف ؟ متى فقد هؤلاء النور ؟ هل من فجر التاريخ أم أن
هذا حدث مؤخراً ؟ هل هم متكيفون على الرؤية بشكل لا أعرفه ؟
ربما تبدل شيء في عيونهم وهذا يعنى أن ملايين السنين مرت
بهم في هذا الحال ..

لا أرى حلاً سوى أن نبحث عن قسم الشرطة ونحاول الحصول على جهازنا ..

هذا العالم لا يُطاق .. لا يُطاق إلى درجة أنه مخيف ..

مددت يدي أعبت في جيبي شارداً . هنا اصطدمت أناملى بشيء ما ..

كنت مع (جمشيد) في ذلك الكهف الصحراوي .. أردت أن أسخن طعامي ، فقال وهو يدرس في يدي شيئاً :

- « استعمل هذه .. لقد سرقنا بعضها منهم .. »

كانت قداحة بلاستيكية صغيرة امتلأت حتى نصفها .. لكنها كانت مصدرًا عزيزًا للنار في هذا العالم .. أشعلت بها الموقد ثم أعدتها له فقال باسمًا :

- « احتفظ بها .. نحن نسرق الكثير منها من جثث الجنود الغربيين الهالكين .. »

الآن كانت القداحة بين أناملى ..

معي قداحة يا (سلمى) .. شد ما اعتبرها كشفًا ثمينًا في عالم الظلام هذا .. أريد أن أشعلها .. أريد أن أرى اللهب لحظة واحدة ..

أريد أن أتفحص هذه الوجوه لأرى من هي .. أعرف كيف يبدو هذا اللوي وما هي أبعاده .. أريد لحظة واحدة ثم يعود الظلام ..

أريد أن أتأكد من أنني لست كفيفًا حقًا .. ربما كان وهج ذلك البرق قوياً إلى درجة أن المكفوف يراه .. لا أذكر أين قرأت قصة كهذه ، لكن يُقال إن ضوء بركان (فيزوف) كان من القوة بحيث بلغ شبكية العينان .. أعرف أن هذا هراء ، لكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير فيه ..

مددت يدي إلى القداحة وداعبت الترس .. شليك .. شليك !

في اللحظة التالية توهج الضوء ، ومن جديد تكررت الظاهرة الستروبوسكوبية إياها .. بدالى كأن كل من رأيتهم تحولوا إلى تماثيل ..

(سلمى) تنتظر للنور فى لهفة .. موظف الاستقبال يقف أمامه
رجلان .. امرأة تجلس على أريكة وترضع طفلاً .. ثلاثة رجال
يشربون الشاي .. الكل ينظر للهب فى ذهول ..

كان أهم ما لاحظته فى هذه الومضة السريعة أن هناك حالة
عامة من اضطراب الثياب وعدم الهدمة .. الرجال منكوشو
الشعر طويلو الذقون ، والمرأة ترضع الطفل بطريقة خالية من
اللياقة فى مكان عام .. لوبى الفندق قذر جداً ولا يمكن أن ترى
مثله فى لوكادات (الحسین) التى تتقاضى جنبيهن فى الليلة ..

كل هذا منطقي .. عالم لا يبصر هو عالم لا يهتم البتة بمظهره ..
أعتقد أنه عالم يهتم برأحته أكثر ..

طبعاً كانت قدرة القداحة على الإضاءة محدودة .. دائرة ضيقة
جداً من الوجوه .. لا أرى أبعد منها ..

الملاحظة الثانية هى أن النور أهم فعلاً ..

أنا نفسى شعرت بألم بالغ عندما لامس الضوء شبكيتى ..

ومن جديد ساد الظلام ..

هنا فقط بدأ الجحيم ..

سمعت من يصرخ :

- « أقبضوا عليهما ! »

- « متمردان ! »

- « كافرين ! »

- « لقد لوثنا الظلام ! »

7- الجريمة ..

كافران ؟ متمردان ؟ لوثا الظلام ؟

لم أعرف أنني ارتكبت كل هذه الجرائم بالجملة ، لكن أسماء التهم تدل على أن الأمر لن يقتصر على السجن .. منذ فجر التاريخ ومصير الزنادقة هو قطع الرقبة أو الحرق .. مصير المتمردين لا يختلف كثيراً ولات حين مناص .. لا .. لن يكون هناك حرق ما دامت لا نار هناك !

كنت قد أدركت في هذه اللحمة السريعة مكان المدخل .. هكذا مددت يدي أعصر ساعد (سلمى) وجريت في ذلك الاتجاه .. كان هذا هو الوقت الذي شعرت فيه بمن يعتصرني بين ذراعيه في قوة .. لقد فررت إلى ذراعيه مباشرة كأتني أعشقه منذ دهور !

هكذا رفعت ركبتي وضربته في أسفل بطنه ، فسمعت الهواء يخرج من فمه .. في اللحظة المناسبة بالضبط لأن أحدهم أمسك بساعدي بقوة .. كل القوم هنا يمسون بساعدك بطريقة تذكر بالكلايات ..

لم يكن هناك وقت للمزاح ؛ لذا ضربته بجبهتي في جبهته أعنف ضربة ممكنة جعلت مخي يرتج حيث سبح في بحيرة السائل النخاع الشوكي .. لكن ككل ضربات (الروسية) هذه يتضرر المضروب أكثر من الضارب ولا أجد تفسيراً فورياً لهذه الظاهرة ..

« أغلقوا الباب ! إنهما يحاولان الهرب ! »

كنت أخشى هذا ..

لكننا نتحرك بسرعة وأشم رائحة الهواء النقي .. إتنا على الباب .. إتنا اجتزناه فعلاً ..

في هذه اللحظة انغلق الباب وراعنا ! لقد أغلقوه ليحبسوننا بالدخل وهذه هي مزية التعامل مع عميان ..

هبطت و(سلمى) بضع درجات . بصعوبة أنقذت عنقي من أن يتحطم إذ تعثرت .. وفي النهاية وجدنا أننا في الشارع ..

همست لها :

« لن يطول الوقت .. سيخرجون للبحث عنا ، وهم أكفأ وأسرع .. يجب أن ننتظر جوار جدار ونكف عن الكلام .. »

- « والرائحة ؟ رائحتنا .. »

كانت رائحة طعام تهب علينا من مطعم ما ، وقدرت أنها قوية بما يكفى كى لا يشمنا أحد .. بعد كل شيء هم بشر وليسوا كلاباً بوليسية .. ما لم يكن الفص الشمى فى مخهم قد صار فى حجم قبضة يدى ..

هكذا جلسنا جوار جدار وضمتها على سبيل تقليل مساحة جسدنا ورحنا ننظر ..

بالفعل نسمع صوت الخطوات ..

هناك من يصيح :

- « إتهما ليسا بالداخل .. »

واحد يسأل فى غلظة :

- « ماذا فعلا ؟ »

- « معهما نار وقد جرعوا على إشعالها ! لقد لوثا الظلام ! »

- « فلنخل مسئوليتنا .. يجب أن تبلغ الكهنة ! »

كانت هذه الكلمات غريبة عندما تقال بالعربية وبلهجة قاهرية .. لا يتلفظ بها أحد رجال الإرتك أو راهب بوذى .. هناك كهنة فى الموضوع ..

- « إن المسئولية خطيرة .. »

- « لذا يجب أن يتولى الأمر من هم أكثر حكمة .. »

- « ربما كانت الكلاب قادرة على العثور عليهما .. إن راتحتهما تملأ الغرفة .. »

- « معك حق .. »

يا للكارثة !

هناك كلاب بوليسية ورائحتنا تملأ الغرفة ! ما الذى فعناه بالضبط ؟

عندما ابتعدت الأصوات أشرت لـ (سلمى) كى ننهض ونبتعد .. يجب أن نبتعد قدر الإمكان ثم نجد طريقة للفرار من تلك الكلاب الموعودة ..

نشم رائحة الطعام .. رائحة لحم محمر أو مشوى .. صحيح كيف يحصلون عليه من دون نار ؟

وقفنا أمام دخان طيب الرائحة كالذى شمعناه أمس .. بالفعل تحول الأمر إلى سحابة كثيفة تحيط بنا .. صوت أشخاص يروحون ويجيئون فى الظلام ..

همست (سلمى) :

- « ألا يأكلون إلا اللحوم ؟ أين يمكن للمرء أن يأكل بعض الفول ؟ »

قالت لها :

- « لاحظى أن هذا كوكب بلا نور .. أى إنه لا نباتات هنا .. لابد أنهم يعتمدون على البروتين الحيوانى اعتماداً كاملاً .. »

- « وماذا تأكله الحيوانات ؟ »

حقاً كان هذا سؤالاً غامضاً .. من دون نباتات لن تدوم الحياة إلا بضعة أشهر إلى أن يتم التهام الثروة الحيوانية الباقية .. بعدها .. لا طعام .. خطر لى خاطر مخيف استعدت بالله منه .. هذا العالم لا يأكل أهله بعضهم البعض .. لا يمكن أن تكون الأمور بهذا السوء ..

وما معنى أننا لوثنا الظلام ؟ من الواضح أنهم يعتبرون الظلام كياناً مقدساً .. من هم هؤلاء الكهنة ؟ الحقيقة أن كل دقيقة لنا هنا تشعرنى بأن هذا الكوكب غير رحب على الإطلاق ..

قالت لها :

- « بينى وبينك .. لقد بدأت أعتقد بما كان يقوله الفلاسفة إن عالمنا هو أفضل العوالم المحتملة .. لقد رأينا أرضاً انقرض فيها العرب وأرضاً سيطر عليها المغول وما هى ذى أرض بلا شمس .. من الواضح أننا كنا فى جنة أرضية ولم ندرك هذا .. »

قالت كالحالمة :

- « صبراً .. هناك عالم رائع فى مكان ما .. المشكلة هى أن أخطأنا لا تصحح .. لا نستطيع العودة لعالمى أو عالمك .. أنت تعرف أن الجهاز لا يكرر ذات العالم مرتين .. الباب الذى نتركه صار محرماً علينا .. »

ثم أردفت :

- « المشكلة هي أن هذا العالم مقضى عليه بالهلاك .. عالم بلا شمس هو عالم منته .. لكن إلى أي حد ؟ هل تأقلم هؤلاء القوم وكيف ؟ »
قلت في قلبي :

- « هل تعتقدان حقاً أنه عالم بلا شمس ؟ إذن لكان الجليد يكسو كل شيء .. كنا سنكون أقرب إلى كوكب (بلوتو) .. مجرد صحراء جليدية بلا حياة .. بينما نحن لا نعتنى إلا ببعض البرد الذي يذكرني بالأيام الباردة في شهر (طوبية) في عالمي .. ليست هذه هي فكرتي عن انعدام الشمس .. قد يكون هذا عالماً بلا نور لكنه بالتأكيد ليس عالماً بلا شمس .. »

الحقيقة أن الألفاظ تزداد كثافة .. في مكان ما توجد الإجابة لكن أين ؟ وما هي ؟

8- الكلاب ..

كان بائع الصحف ينادى بصوت عال على بضاعته :
- « اقرأ الأخبار .. آخر تصريحات القومندان .. إعدام خمسة من النورانيين ! »

في عالمي هناك مدارس صوفية تحمل ذات الاسم ، كما أن هناك منظمة سرية شريفة ذات طابع يهودي هي (النورانية) ، يقال إن إبليس شخصياً يرأسها ، وهي موضوع مفضل لكتب المؤامرات على غرار (الإمبراطورية الخفية) و(أحجار على رقعة الشطرنج) .. إلخ .. لكن لا أعتقد أن لها علاقة بما يتكلم عنه هذا الرجل ..

لكن ما معنى أنه يطالب الناس بالقراءة ؟

دنوت من مصدر الصوت .. ومددت يدي أتخسس .. بالفعل كانت هناك صحف ، لكن ورقها سميك أقرب إلى الورق المقوى ، وكانت على الورق صفوف من ثقوب وبروزات تتحسسها أناملتي .. من الواضح أن لغة (برايل Braille) هي

(م 5 - ما وراء الطبيعة عدد (68) أسطورة أرض الظلام)

طريقة الكتابة السائدة هنا ، ومعنى هذا أن عدد قارئى الصحف أقل بكثير من عالمنا ..

معنى هذا كذلك أننا سنكون أميين فى هذا العالم ..

من هو القومندان ؟ وماذا يفعل ؟

قالت لى (سلمى) وقد فهمت بنكاتها الحاد ما وجدت :

- « طريقة (برايل) .. ليس كذلك ؟ »

- « بلى .. لا توجد طريقة أخرى .. أعتقد أن هناك خدمات

إذاعية كذلك .. »

كنت أدرك حقيقة أن هناك جواً بوليسياً مرهقاً فى هذا الكوكب .. الناس غير ودودين على الإطلاق وهذا يزيد من تعقيد عملية الفهم .. ليس بوسعك أن تدنو من أحدهم لتسأله عن القومندان وهذه النوراتية ..

فجأة سمعنا البائع يتكلم ومن الواضح أنه يكلمنا نحن :

- « اسمعا .. لو كنتما المقصودين فلتفراً حالاً ! »

سألته فى رعب :

- « المقصودان بماذا ؟ »

قال نافذ الصبر :

- « لا داعى للتذكى .. أنتما تعرفان ما أتكلم عنه .. إن

سيارة الشرطة قادمة .. أسمعها بوضوح .. لن تكون لديكما أية

فرصة للنجاة ! »

سيارة شرطة ؟

قالت (سلمى) وهى تجرئى من ذراعى :

- « هذا معقول .. الشرطة اختصت نفسها بمزية الرؤية ..

هذا يجعل المطاردين معدومى الحيلة تماماً .. لا بد أنهم

يستعملون الأشعة تحت الحمراء أو شيئاً من هذا القبيل ،

وبالتالى يتمكنون من القيادة فى شوارع المدينة .. دعنا نفر من

هنا ! »

قال بائع الصحف :

- « هذا هو العقل بعينه .. الشرطة تستعمل طريقة التصوير

الحرارى للرؤية .. لاحظا أن الكلاب قادمة كذلك ! »

قلت فى جزع :

- « وماذا نعمل بصدد هذا ؟ »

- « هذه مشكلتكما .. لكن لو كنت مكانك لبدلت ثيابي بثياب قديمة كريهة الرائحة ! »

وشعرت بشيء يلامس يدي .. إنها ثياب قديمة متسخة .. لا أعرف لماذا يحتفظ بها ، لكن هذا الرجل خدوم فعلاً .. من الصعب أن تلقى من يقدم لك خدمات في هذا العالم .. الجميع خشن فظ أو - على الأقل - بارد لا مبال ..

الآن أسمع صوت السرينة .. بالفعل هناك سيارة شرطة قادمة .. والسبب الذي جعله يسمعها ولم نسمعها نحن هو أن حواس هؤلاء القوم صارت مرهفة مشحوذة كالمسكين .. هاتان أذنا قُط ..

يمكنني الآن أن أسمع نباح الكلاب ..

سوف يستغرقون دقائق إلى أن يصلوا إلى الفندق فتصعد الكلاب إلى غرفتنا لتنهل من رائحتنا ثم تتطلق في الشوارع ..

صحت في (سلمى) :

- « اتزعي ثيابك مثلي ! »

وبدأت أتجرد من الثياب فيما عدا ما هو ضروري منها .. ولم أبال بمكان ترك ثيابي . لقد صارت لعنة يجب التخفف منها سريعاً ..

صاحت محتجة :

- « منذ متى أتجرد من ثيابي في الشارع ؟ »

- « منذ صرنا في عالم لا يرى أي شيء .. أنت في أمان كأنك في غرفة موصدة .. إن الثياب الجديدة ليس الغرض منها ستر جسدك بل ستر رائحتك ! »

وبدلنا ثيابنا بما استطعنا من تلك الثياب العتيقة كريهة الرائحة .. لا بد أن صاحب هذه الثياب السابق كان يعمل في المجارى .. لكن الأمان أهم من النظافة حالياً .. يسهل العثور علينا لو كانت هذه الكلاب مدربة على البحث عن أخبث رائحة في الكون ..

قالت (سلمى) في اشمزاز :

- « ماذا عن الحشرات ؟ »

- « اعتقد أن هناك الكثير منها .. الشمس لا تؤدي دورها كمظهر في هذا العالم ! »

- « يا للكارثة ! »

سوف نجرى .. لا أدرى لأين لكننا سنبتعد والسلام ..

ما هي تهمتنا ؟ إشعال قداحة طبعاً ! وإبها لأغرب تهمة سمعتها في حياتي .. في (رومانيا) قديماً كان يمكن أن تُسجن لأنك أشعلت لفافتى تبغ بذات عود الثقباب ، والسبب هو أن الشركات التي تحتكر الثقباب كانت تريد الحفاظ على مكاسبها ، لكن يظل هذا أقل غرابة من جريمة إشعال القداحة هذه ..

أين نذهب ؟

إن الأمر معقد بما يكفى لو كنت مبصراً .. فماذا عنك كفيفاً ؟

هنا سمعت بانع الصحف الشهم بصيح :

- « لحظة .. نسيتما شيئاً مهماً .. »

وشعرت بالماء يسيل ليغرق ثيابي .. ويبدو أن (سلمى) تلقت بللاً مماثلاً لأنها شهقت .. إن الطقس بارد بما يكفى ..

ثم فهمت .. ما دام رجال الشرطة يستعملون المجسات الحرارية للرؤية فمن المفيد أن تكون بارداً كالموتى ..

قلت للرجل همساً :

- « ألف شكر .. أنت رجل شهم .. »

المشكلة هي أنك لا تعرف كم واحداً يحيط بك حقاً .. ربما كان هناك عشرة من حولنا في هذه اللحظة ..

هكذا انطلقنا نركض .. لا أدرى لأين لكننا نركض والسلام ..

وسمنا من بعيد صوت كلاب تنبح .. لقد صدقت النبوءات حرفياً ..

كلاب عمياء طبعاً لكن منذ متى تحتاج الكلاب إلى رؤية واضحة ؟

« المتحف المصري ! تعالوا لتتحسسوا كنوز الفراعنة ! »

حتى هذا يتم تحسسه !

معنى هذا أننا فى ميدان تحرير قاهرة هذا الكوكب .. للمرة الأولى نعرف أين نحن ..

عبرنا الشارع دون قلق .. فلا توجد أية مركبة .. لا أصوات ولا ضوضاء ..

فجأة فكرنا فى الشيء ذاته معاً .. زيارة للمتحف المصرى فى هذه الظروف .. على الأقل لن ندخل الكلاب وراعنا .. لن يكون هذا أغرب مكان للاختباء .. لقد فررنا ذات مرة من المغول إلى السينما ، واتضح أنها ألعبن مكان يمكن تصويره ..

لا أعرف كيف ولا متى وجدنا أننا نمشى فى ممر طويل وأن هناك من يمرر أجهزة كشف معادن على جسدنا ..

سمعت صوتاً يتأفف :

« ما هذا ؟ ألا تستحم ؟ »

صحيح .. يبدو الأمر غريباً بعض الشيء أن يهتم شخص لا يلبس إلا هذه الأسماال المتسخة بزيارة المتحف المصرى ،

9- المتحف .. لولو منسى الريفيرى

نركض فى الشارع غير واثقين أصلاً من أنه شارع ..

لكنك تشم رائحة الطعام فى المطاعم ، وتسمع النداء عبر مكبرات الصوت يدل الناس على مواضع المستشفيات والهيئات الحكومية .. جو غريب فعلاً ..

« هيئة التامين ! هيئة التامين ! المعاشات ! المعاشات ! حجز تذاكر الطيران ! فندق .. فندق ! »

كنا نجرى بلا توقف ، وإن هتفت (سلمى) بأنفاس متقطعة :

« تذاكر طيران فى عالم لا يرى ؟ »

قلت وأنا ألهث :

« أعتقد أن الأمر يعتمد على الكمبيوتر الملاحى إلى حد كبير .. لابد أنهم يقومون بضبط الإحداثيات ويتركون الأمر للملاح الآلى .. »

لم أمقت فى حياى شيئاً مثل الكلام أثناء المشى أو الركض .. أشعر وقتها بأننى موشك على الإصابة بنوبة قلبية ..

لكنى تجاهلت ما قاله .. ودفعت ثمن التذكريتين حسب القواعد الجديدة .. الحقيقة أننا نمارس الغش بلا انقطاع .. أعتقد أنني صرفت ثلاثة جنيهات لا أكثر وجدت طريقها إلى الإفراق على أنها ثلاثمائة جنيه .. طيلة الوقت أتقاضى بالقي مالى بالأوراق المطوية فمن أدراى أنها كذلك ؟

كيف لا يُخدع الناس بهذه الطريقة ؟

هناك احتمالان .. احتمال أن الجميع فى الهواء سواء لذا لا يوجد احتمال للغش .. الكل يتعاطف مع بعضه والأمانة جزء مهم من كياتك .. الاحتمال الثانى هو وجود نوع من (توازن الغش) .. أنت تغش الناس وهم يغشونك .. هكذا تبقى الثروة موزعة بنسب ثابتة .. فى الغرب القديم كان الفارس يترك حصاته فى الحاة ويختار حصاناً أكثر ليافة ، وكان هناك من يأخذ حصاته .. هكذا يبقى توازن الخيول ثابتاً ..

الآن نجتاز مدخل المتحف المصرى .. للمرة الأولى نراه من

دون ضوء ..

صوت مرشدة حسناء .. كيف عرفت أنها حسناء ؟ لا يوجد تفسير آخر .. نفس ما أوقع (طه حسين) فى غرام (مى) ، برغم أن الصوت يخدع كثيراً .. لكن الأذن تعشق قبل العين أحياناً ..

المرشدة الحسناء تقول لنا :

« لو مددتكم أيديكم إلى اليمين لشعرتم بملامح تمثال (أمونفيس الرابع) .. الوجه الطويل الحزين .. هذه هى الملامح التى تمثل فترة العمارنة .. إن الاسم الذى نعرفه لهذا الفرعون هو .. (أخناتون) .. »

هذه التماثيل كانت معروضة بعيداً عن أعين المشاهدين .. لكنها الآن قد وضعت على الأرض لتكون متاحة لمن يريد أن يتحسسها ..

أتمس ملامح الوجه فتصطدم يدي بيد أخرى لا أعرف إن كانت يد (سلمى) أم لا .. فقط أسمع من تقول وهى تسحب يدها :

« انتشولدجن زى .. »

سانحة ألمانية كما هو واضح .. جاءت من بلدها لالترى
أثارنا لكن لتتحسسها ..

بحثت بيدي حتى لمست يد (سلمى) .. يسهل أن أجدها بفضل
رائحتها الكريهة .. نحن بحاجة إلى حمام لكن متى وأين ؟ وهل
نكون في أمان وقتها ؟

« هنا تجدون تمثالاً يظهر الجسد شبه الأنثوى لهذا
الفرعون ، حتى اعتقد العلماء أنه مصاب باختلال هرموني ما ... »
أمسك بيدي (سلمى) ونقف في ركن المكان .. الصوت
يضعف ويضعف .. الخطوات تبتعد .. واضح أن المجموعة
تبتعد عنا ..

قالت لي في الظلام :

« لا أستطيع تخيل قاعة العرض هذه .. كيف وضعوا هذه
التماثيل العملاقة هنا في متناول اللمس ؟ إنسى أنكر قاعة
العمارة هذه وأعرف موضع كل تمثال فيها .. »

« وأنا كذلك .. »

همست في إغراء :

« ما رأيك في مرة واحدة .. تشعل القداخة لربع ثانية لنرى
المكان ثم تنتهي كأن شيئاً لم يكن ؟ »

همست في رعب :

« لقد فعلتها مرة واحدة وها نحن ذان ندفع الثمن
بلا توقف .. »

« من الواضح أنه لا أحد هنا .. »

« وكاميرات المراقبة ؟ »

« هل تمزح ؟ كاميرات مراقبة في بلد عميان ؟ أعتقد أنهم
يكتفون بأجهزة تنصت مرهفة .. »

هنا فعلت التصرف الوحيد المنطقي .. رفعت صوتي عاليًا :

« لو سمحت يا آنسة ! .. »

لا رد .. فعدت أكرر الأمر :

« لو سمحت يا آنسة ! .. »

سألتني (سلمى) :

« هل جننت ؟ »

- « لا . فقط أتيقن من أنه لا أحد معنا فعلاً .. »

ثم مددت يدي إلى القداحة ورفعتها عاليًا .. بالفعل أتحرق
شوقًا لرؤية الضوء .. زميل العمل القديم الذي لم أعد أراه ..

تسك ! تبتقت الشعلة .. باعثة نشوة لا توصف فينا .. نشوة
ربما لم يشعر بها إلا القدامى حينما تمكنوا لأول مرة من اقتناص
هذه الزهرة الحارقة المراوغة ..

لكن ما رأيته كان غريبًا ..

10 - الضوئي ..

لم أر تماثيل (أخناتون) و(نفرتيتي) كما توقعت ..

لقد كانت هذه التماثيل التي كنا نتحسسها عبارة عن
كتل تم صبها بالأسمنت وتم طلاؤها بمادة براقّة ما .. لقد
تم الصب بعناية لتعطي ذات الانطباع .. هناك تجاويف وحفر
حيث تحسنا بحثًا عن وجه .. هناك التفاف حيث قيل لنا إنه
جسد (أخناتون) ذو الطابع الأنثوي .. هناك ما يشبه
النقوش ..

لقد كانت خدعة كبرى .. وهذه الساحة الألمانية جاءت من
بلادها كي تتحسس كتلاً أسمنتية !

تذكرت قصة العميان الأشهر ، عن العميان الذين تحسسوا فيلاً
فقال أحدهم إن الفيل يشبه المروحة ، وقال آخر إن الفيل خرطوم
لين ، وقال واحد إن الفيل أربعة أعمدة غلاظ .. كل واحد كان
يصف ما لمسته يده .. بينما المبصر يرى كل شيء ويدرك أن
كل هذه أجزاء من فيل ..

جهاز رؤية ليلية ..

عندما عاد الظلام كنت أفكر .. هل غياب الشمس يسمح بوجود الأشعة تحت الحمراء ؟ لا أعتقد . إذن من أين تستمد هذه العدسات الشعاع الذي ترى به ؟

لقد رأى كل شيء لا جدال في هذا ..

هنا يأتي السؤال الأهم : من هو ؟

هل كان يراقبنا منذ البداية ؟

ارتجفت وسمعت (سلمى) تشهق في رعب ..

هنا جاء صوت الرجل عاليًا في الظلام يقول :

- « أرى أن المتحف راق لكما .. لكن أرى أن ننصرف لتناول

الغداء يا (كامل) .. »

كدت أحتج بأن اسمي ليس (كامل) ، لكن (سلمى) اعتصرت ذراعي بقوة .. الرجل لا يكلمنا ولكن يكلم أجهزة التنصت الحساسة التي توقعنا وجودها ..

إنه يرسل رسالة لطرف آخر بصيخ السمع ..

لكن من فعل هذا ؟ هل سرقت هذه الآثار ؟ هل إدارة المتحف تعرف ؟ هل أرادت أن تحمي الآثار الثمينة بهذه الطريقة ؟ المهم أن السائح أو الزائر يلمس بأتمامه ما وصفته المرشدة .

لم يكن الوقت كافيًا لمزيد من الفهم ..

هذا الضوء يفضحنا ويكشف أمرنا ..

لقد استغرق الأمر جزءًا من دقيقة ، لكن كان هذا كافيًا .. وقد عرفنا كذلك أن القاعة خالية كما تمنيت ..

خالية ؟ ليس تمامًا ..

كان ذلك الرجل يقف هناك في ركن القاعة جوار المدخل وقد وضع يده أمام وجهه ليتلقى الضوء ..

عندما خفض يده أدركت أنه يضع عيونات غريبة الشكل على رأسه تجعله أقرب لصورة لرأس النملة كما تراها بالمجهر الإلكتروني .. ليست عيونات بل هي أقرب إلى عدسات النظارات التي تطل على العالم خارج رأسه على الجانبين .. وهي تتصل بمجموعة معقدة من الأسلاك ومثبتة بخوذة إلى رأسه .. صورة قديمة رأيتها مرارًا في اللقطات الإخبارية من مواقع الحروب ..

وسمعه يهمس قرب أذنى :

- « لا تكن غيبياً ! اتبعنى فى هدوء ! »

وفى الظلام شعرت بيده تمسك بمعصمى .. ومشينا وراءه بلا مقاومة .. مشينا فى رواق طويل والأفكار تصطرع فى ذهنينا .. أخيراً شمعنا رائحة الهواء البارد .. نحن فى الخارج فعلاً .. سمعه يهمس :

- « أنتما فى ورطة مخيفة .. »

- « منذ متى لم نكن ؟ »

- « أتضحكما بأن تبقىا معى .. لا أمل لكما فى النجاة غير هذا .. »

- « من أنت ؟ »

قال بنبرة عملية :

- « هذه قصة تطول .. فقط يجب أن تنجوا أولاً .. بعد هذا نتكلم .. إننى أراقبكما منذ فترة لا بأس بها .. فرصتكما فى النجاة واهية جداً لأن الشرطة تملك وسائل رؤية ليلية ، بينما أنتما لا تملكاتها .. تصور فرصة كيف فى النجاة بين مبصرين .. هذا هو وضعكما .. »

- « لكن المجسات الحرارية والكلاب .. »

قال مقاطعاً :

- « ليس هذا كل شيء .. لاحظنا أننا ألبس جهازاً لا يعتمد على هذه التقنيات .. لقد حصلت عليه بالوراث .. من رجل شرطة اضطررت لضربه .. عندما تصير المبصر الوحيد وسط العميان تعرف أشياء مروعة بحق .. وهذه المعرفة باهظة الثمن .. إنها تساوى حياتك نفسها .. »

كنا نمشى معه كطفلين وهو يفتادنا عبر طرقات لانهاية لها ..

بعد نصف ساعة شعرنا بأننا فى مكان مغلق ..

سمعنا الباب يوصد .. ثم قال لنا وهو يلهث :

- « مرحباً بكما فى بيت ضوى من الضوئيين أو الثورانيين

فى تعبير آخر ! »

1- الكارثة ..

فى سن العشرين كان (سليم أنيس) مجرد شاب آخر ..
لقد أوشك على إنهاء دراسته فى كلية العلوم .. قسم
الجيولوجيا ، وهى دراسة لم يكن موفقاً فيها تماماً .. لقد تعثر
عدة مرات لكنه كان يتحرك إلى الأمام برغم كل شيء ..
لم يعلق شيء من الدراسة فى ذهنه سوى د. (مصطفى)
أستاذة الذى كان أقرب الأحياء إلى صفات العالم بالنسبة له ..
كان قصير القامة أشيب الشعر ومن الغريب أن قصر قامته كان
يعطيه هبة خاصة .. المفترض أن طول القامة هو الذى يوحى
بأشياء كهذه ..

كان د. (مصطفى) مولعاً بالجيولوجيا بحق ، ولسبب ما أحب
(سليم) الذى لم يكن بالتأكد أفضل طالب عنده .. إنها تلك
الكيمياء بين الأرواح التى لا يمكن فهمها .. وفى هذا العصر
السعيد كانت الدفعة صغيرة جداً يسهل أن تتذكر اسم كل واحد
من طلبتها ، دعك من أن قسم الجيولوجيا لم يكن محبوباً إلى هذا
الحد لدى الطلبة ، وبالتالي كانت الدفعة صغيرة . ما لم تكن

الجزء الثانى

ذكرى الأضواء

هنا لا توجد مياه وإنما يوجد صخر فقط ..
صخر ولا مياه والطريق الرملى ..
الطريق المتعرج فى الأعلى بين الجبال ..
وهى جبال من صخر بلا ماء ..
ولو كانت هناك مياه لتوقفنا وشربنا ..
بين الصخور التوقف محال والفكر محال ..
والعرق جاف والأقدام تغوص فى الرمال ..
ليت بين الصخور مياهاً !
ولكن جبل ميت به غار كغم نخر أسنانه السوس ..
أسنانه التى لا تستطيع أن تبصق ..
هنا لا سبيل إلى وقوف أو رقاد أو جلوس ..
حتى الصمت لا وجود له فى الجبال ..
وإنما فيها رعد مجدب بلا أمطار ..
حتى الوحدة لا وجود لها فى الجبال ..
وإنما فيها وجوه حمر كنيبة تهزأ أو تكشر ..
من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت.س. إليوت)
ترجمة د. (لويس عوض)

محفوظًا وتعمل فى البترول ، أو تكن عبقرياً وتعمل فى الجامعة ، فإن مصيرك مبهم نوعاً ..

كانت أسرة (سليم أنيس) أسرة عادية متوسطة من الأسر التى يعود فيها الأب ليتناول الغداء وينام بعد الظهر ، بينما تعد الأم (المحشى) الذى ستأكله الأسرة غذاً لتوفر الوقت .. ترصه بدقة فى تلك الحلة التى ستضعها فى الثلاجة حتى الغد .. الأخت المراهقة التى بدأت تكتشف أن مسحة لون أزرق على الجفنين تجعلها أجمل بشرط ألا يراها الأب حتى لا يفتك بها .. الأخ الأصغر الذى يرى أن أجمل شيء فى العالم هو (الضرب) ..

هناك حبيبة كالعادة .. تلك الفتاة الرقيقة ذات الغمازتين .. هناك صديق .. هناك جيران ..

حياة كاملة مثل حياتى وحياتك ..

فقط كانت هناك صفتان تميزان (سليم) .. ربما ثلاث صفات ..

ولعه بالقطط الصغيرة وهو مزاج بدا مستغرباً بالنسبة لشاب كامل الرجولة .. فقد بدا هذا لمن يعرفه كأنه علامة أنثوية ما .. كان يحب أغاتى (فيروز) ويحب النوم لساعة متأخرة ويحب

قراءة الصحف فى الحمام .. دعك من أنه يعانى قرحة معدية مزمنة ، ويبتسم بزاوية فمه اليسرى .. لا بأس .. هذه عيوب يمكن التعود عليها مع الوقت ..

لم يكن (سليم) مهتماً بشيء على الإطلاق .. هناك (فاتن) صديقة الكلية وهذه كانت تمثل جزءاً مهماً من عالمه ، لكنه كان يعرف أنه سيفقدها فى أول فرصة ممكنة .. لن يجد الشجاعة أيداً ليقابل أباه وهو لا يملك دخلاً ولا مدخرات ..

من جهة السياسة كان هذا الكوكب شبيهاً بأرضنا فى كل شيء .. هناك إسرائيل وهناك أمريكا وهناك اتحاد سوفيتى لم يعد كذلك .. نفس مشاكل العرب وإحباطاتهم .. أوروبا تشبه تلك التى لدينا تماماً ..

أنهى (سليم) فترة التجنيد الإجبارى بعد التخرج ، ثم راح ينظر إلى المستقبل فى قلق وتوتر .

كان بحاجة إلى وقفة (تعبوية) يقرر فيها كيف يتحرك سيناريو المستقبل ..

هنا سقط النيزك ..

لا يذكر عن تلك الفترة إلا الهستيريا العامة ..

كانت الأنباء تصل بلا انقطاع عن النيزك الذى يقترب من الأرض بسرعة جهنمية .. تلك كانت أجواء نهاية العالم فعلاً .. الناس يصرخون ويبكون ..

التوتر العام .. القلق .. الشغاف المرتجفة ..

فى الشارع تسمع أصوات القرآن يتلى فى المساجد ، وأصوات أجراس الكنائس تدق بلا انقطاع .. لقد كثر الحديث عن (نهاية العالم) ..

سامح كل واحد أعداءه ، واعترف من ارتكب ذنباً بخطئه ..

أما (فاتن) فقد اتصلت بـ (سليم) تخبره أنها تحبه .. لقد قاومت كثيراً حتى لا تعترف بهذا لكن الزمن صار شحيحاً والنهاية قادمة ..

- « هل تتزوجنى ؟ »

- « بالتأكيد .. »

هذه ظاهرة أخرى من ظواهر نهاية العالم هذه .. لقد تزوج عشاق كثيرون جداً كى يقابلوا النهاية معاً .. ولم يكن الأهل المجهدون قادرين على الرفض ..

ومن جديد تكرر ذات السيناريو الذى عرفناه على أرضنا كلما تنبأ أحد بدنو نهاية العالم .. باع كثير من أصحاب الأملاك ما يملكون بثمن بخس ، وهى مخاطرة دفع الكثيرون ثمنها غالياً فيما سبق عندما مر الموعد ولم ينته العالم ، من ثم أمضوا باقى حياتهم فى التسول ..

فى عالمنا حدث شيء مماثل عندما جاء العام الميلادى 1000 الذى تنبأ الكثيرون بأنه النهاية .. احتشد الناس فى كاتدرائية كبرى بالفاتيكان ليكون بانتظار ساعة اتصاف الليل ، وعندما جاء الوقت المرهوب توقفت الساعة العملاقة المعلقة هناك (لأسباب مجهولة) من ثم سقط كثيرون موتى بعد أن توقف قلبهم رعباً !

هناك من الناس من انقطع للعبادة ، وهناك من انقطع للهو باعتبار هذه فرصته الأخيرة للفساد .. قليلون انتحروا لأنهم فضلوا الحلول السريعة على الانتظار ..

كان الناس - في مصر على الأقل - يلتفون حول أجهزة التلفزيون والمذياع قلقين يتابعون المسيرة الإغريقية الكريهة لذلك النيزك الذي يقترب من الأرض بلا هوادة ، والذي قيل إن محيطه قريب من محيط المحيط الهادى .. أى إن حجمه يماثل حجم القمر ..

يبكى الناس ويتعانقون فى الشوارع .. والمدنيون يسقطون ديونهم ..

أما فى دار (فاتن) فقد أقيم حفل صغير حزين على عجلة .. هناك جلس (سليم) وأهله مع أهل الفتاة .. وتتعالى الهمسات :

« إنها متحابان بحق ! »

« البائسان ! ما كنا لنجروا على الرفض .. »

« لو كنا فى ظروف أخرى لركلت ابنتكم فى مؤخرته وطردته .. هل يحسب هذا الأحمق أن ابنتنا بلا ثمن ؟ كيف يجسر على أن يحبها وهو لا يملك شروى نقير ؟ »

« لو كنا فى ظروف أخرى نقلت إن ابنتكم ليست العروس التى أحلم بها لابنى .. »

« نكننا لانملك الشجاعة الكافية لتحطيم قلبين شابين .. »

« مما يحطم قلبنا نحن أنهما لن يريا أطفالهما أبداً .. »

كان الأمر قاسياً .. فى أرضنا كانوا يزوجون الجنود السوفييت الشبان الذاهبين إلى الجبهة للقاء النازيين .. وهذا يعنى أن حياة الجندى الشاب الزوجية لن تدوم سوى ليلة واحدة بعدها يرحل إلى الجبهة حيث سيلقى حتفه غالباً .. أى إن عروسه كانت أرملة مع وقف التنفيذ .. فى هذه الأعراس السريعة كان الشاعر (إيفتوشنكو) الطفل يرقص مقابل ثمرة بطاطس يعود بها لأمه !

هكذا وجد (سليم) نفسه متزوجاً من حبيبة الدراسة .. ظروف غريبة كان سيغبط نفسه عليها لو لم يكن محكوماً عليه بالإعدام .. وفى سره تمنى لو أن الكارثة لم تحدث .. عندها سيخرج مظفراً وقد نال حبيبة قلبه ، وليس أهلها بقادرين على الاعتراض ..

طبعاً أقام فى شقة جديدة .. لقد صارت الشقق بسعر علب التبغ بعدما باعها أصحابها بأى ثمن .. البعض تصدق بثمان

ما يملكه والبعض راح يلهو به .. ما قيمة المال بعد الآن ؟ فقط
الذين احتفظوا بأعصابهم قوية ثابتة راحوا يكتزون الذهب
والفضة على أمل أن تنجو الأرض ، وعندها سيكونون أغنى
الأغنياء وسوف ينقلب السلم الاجتماعى بالكامل ..

هذه هى الظروف التى بدأت فيها المأساة ..

2- الارتطام ..

أمل عابر لاح فى الأفق عندما قررت (ناسا) - عندهم واحدة
أيضاً - أن ترسل صاروخاً هيدروجينياً إلى قلب التيزك ليقوم
بتفجيره وهو فى الفضاء قبل أن يلمس الأرض .. على الأقل
يغير مساره ..

هذا سيناريو تمت مناقشته من قبل كثيراً .. وهو حل يبدو
لابأس به ..

حبس العالم أنفاسه يوم انطلاق الصاروخ ، بينما العدسات
تنقل المشهد الخرافى .. وللمرة الأولى تعالت فى العالم العربى
أدعية غريبة مثل (فلينصر الله أمريكا) .. لقد كانت هذه من
اللحظات القليلة التى تدافع فيها أمريكا عن العالم كله ، وإن كانت
تدافع عن نفسها أولاً طبعاً ..

لشد ما تغدو الحياة أجمل عندما تقترب من النهاية ..

لم أنق فى حياتى أئذ من آخر كوب الشاي أو بقايا كأس
العصير ..

الكل ينظر للسماء ويبتهل بينما الصاروخ الجبار يحلق نحو النيزك ..

وتم الارتطام والانفجار فعلاً .. وانتظر الناس أخباراً طيبة لكن هذا لم يحدث ..

لقد تحمل النيزك الصدمة والانفجار الهيدروجيني المروع ، ثم واصل طريقه إلى الأرض .. ذات المسار وذات السرعة ..

هكذا أعلنت (ناسا) أن العملية (ماتادور) قد فشلت .. طبعا (ماتادور Matador) معناها (مصارع الثيران) ومغزى المصطلح واضح .. كان على المصارع الأمريكى أن يوقف هجمة الثور الفضائى .. لكنه فشل .. وظهر الرئيس الأمريكى على شاشات التلفزيون ليقول إنه (يشعر بقلق) .. والرئيس الأمريكى عادة إما أن تتحسن الأمور فيشعر بـ (تفاؤل مشوب بالحدز) أو تسوء فيشعر بـ (قلق) ..

هذه المرة لم يبك أحد ..

لقد استسلم الناس لقدرهم فى سكون وهدوء ..

وخرجت الصحف اليومية تحمل عبارة (العدد الأخير) ، وكاتت مجانية ، لكنها لم تجد من يقرأها على كل حال ..

وعندما لم تبقى إلا ساعات قبل الآباء أطفالهم وسامح الحاقنون أعداءهم ، وصارت الزوجات لطيفات فى ظروف مجهولة ..

فتحت السجون أبوابها لتسمح للمعتقلين بأن يواجهوا الموت أحراراً ، واكتظت دور العبادة ..

هناك من ابتلعوا الكثير من الأقراص المنومة كي لا يكونوا فى وعيهم عندما يحدث الشيء ..

وفى الساعة الثامنة من مساء الاثنين الحزين تم الارتطام ..

هذه هى النهاية ..

يا صديقتى الجميلة ..

هذه هى النهاية ..

يا صديقتى الوحيدة ..

نهاية خططنا المحكمة ..

نهاية كل شيء قائم ..

النهاية ..

لا أمان ولا مفاجآت ..

لن أرى عينيك مرة أخرى أبدًا ..

هل تتخيلين ما سيكون

بلا مدى ولا قيود ؟

نبحث في لهفة عن يد غريب تساعدنا

في أرض يائسة ..

أغنية قديمة لجيمى موريسون

لعدة ساعات ظل الجميع يتحسسون أجسادهم بحثًا عن

إصابات .. لا شيء ..

المؤكد هو أن شيئاً ما ليس على ما يرام . لقد تغير لون السماء وانقطع إرسال المذياع والتلفزيون .. تحولت هذه إلى قطع من البلاستيك ..

على كل حال خرج الناس فى المساء إلى شوارع القاهرة يتبادلون التهاتى .. لقد مر الأمر على خير .. هكذا تذكر من باعوا أملاكهم برخص السراب أنهم كانوا حمقى .. قررت الزوجات أن يعدن للتغيب على الأزواج .. عادت الضغائن لقلوب من تخلوا عنها ..

أفاق هؤلاء الذين تعاطوا الأقراص المنومة حاسبين أنهم ماتوا .. لكن كان كل شيء كما هو ..

مرت الساعات حتى الصباح فى سلام واحتفالات .. إن هؤلاء الذين أرادوا أن ينهوا وجودهم على الأرض فى اللهو استمروا فيما كانوا يقومون به ، والذين لم يريدوا ذلك قرروا الاحتفال بالنجاة ..

وفى دارهما هتف (سليم) وهو يحتضن (فاتن) :

- « لقد نجونا ! وخرجنا مظفرين ! تزوجنا وصار لنا بيت ولم نمت ! »

- « نحن محظوظان !! »

قليل من الشباب في مثل ظروفه من أتاحت له الفرصة بهذه البساطة .. خلال ثلاثة أيام وجد نفسه يجلس بالمنامة في داره مع زوجته الحسنة التي كانت زميلته في الدراسة ، وغريبة عنه تماماً منذ ثلاثة أسابيع . هل جاء هذا النيزك خصيصاً من الفضاء الخارجي كي يجعله سعيداً ؟ يا للكرم الكوني !

لكن الناس بدعوا ويقلقون عندما أشرقَت شمس الصباح ..

لم تكن هناك شمس في الواقع والجو كان غائماً كأيام الشتاء . يمكنك أن ترى النور لكنه قادم من خلال الغيوم الكثيفة التي تكاثرت في السماء ..

وفي الحادية عشرة هطلت أمطار كثيفة .. تفاعل الناس لأن هذا يعني أنها ستفصل السماء غملاً ، لكن بدا أنه ما من شيء قادر على أن يعيد للسماء زرققتها ..

عادت الطائرات القادمة من العالم الغربي حاملة الأخبار ..

لقد كانت رحلتها مفزعة من دون اتصال لاسلكي .. وقد تلفت بعض أجهزة الكمبيوتر ، لهذا كان من حسن الحظ أنه لم تهو سوى ثلاث طائرات فحسب ..

وكانت الطائرات العائدة تحكي أشياء مفزعة ..

النيزك سقط فعلاً .. لكنه سقط على الأمريكيتين .. لقد اختار أن يستقر في المحيط الهادى باعتباره المكان الوحيد المناسب له . كما يضع الطفل قطع اللعب البلاستيكية في الثقوب المناسبة لها حجماً ..

النتيجة هي فيضانات هائلة اجتاحت المحيطين الهادى والأطلنطى .. تغيرات مناخية قاسية .. سحب كثيفة من الغبار تتصاعد إلى عنان السماء لتحجب الشمس ..

أوروبا سليمة . أفريقيا سليمة . آسيا تضررت فقط ناحية السواحل كما هي العادة ..

لقد نجونا ونالت أمريكا جزاءها الشعري .. هذا هو كل شيء ..

كان الناس يتنفسون الصعداء ..

3- الموت الأعظم ..

بالنسبة للحمقى الذين لا يفقهون شيئاً فى علمى الفلك والجيولوجيا- ومنهم كتب هذه السطور- انتهت الكارثة على خير .. خلال أيام تصفو السماء ويتهيأ الناس للحياة فى عالم بلا أمريكا .. هذه مشكلة لكنها ليست خطيرة جداً لأن الناس سيتعلمون الاعتماد على أوروبا .. دعك من أن الصين قوة لا يستهان بها ..

إسرائيل تحولت إلى قط محاصر شرس ينزوى جوار جدار وقد أدركت أن أيامها معدودة .. من دون ولايات متحدة تجد إسرائيل نفسها عارية تماماً ، لكن أوان دفع الثمن لم يحن بعد ..

بالنسبة لعالم مثل د. (مصطفى) كان يرتجف هلغاً .. لقد توقع السيناريو القادم وعرف حرفياً ما سيحدث ..

إن نهاية الحياة كما نعرفها قادمة ، لكن ليس بالشكل الذى تخيله الناس ..

سيكون موتاً بطيئاً مريغاً قاسياً ..

من الواضح أنهم لم يفهموا بعد الأبعاد الحقيقية للكارثة ..

إن سيناريو K-T قد عاد يتحقق حرفياً ..

عندما جلس د. (مصطفى) مع تلميذه (سليم) كانت لديه أسئلة ومخاوف عديدة، جعلت الدم يتجمد في عروق الفتى ..

لماذا انقرضت الديناصورات منذ ملايين السنين ؟

هذه الكائنات العملاقة برهنت عن كفاءة عالية في التكيف ، وقد سادت الأرض 165 مليوناً من الأعوام . ثم زالت فجأة في ظروف غامضة منذ 65 مليوناً من الأعوام ..

ماذا حدث وقتها ؟ ما هو السر الرهيب الذى جعلها تزول ؟ هل هذا السبب قابل للتكرار ؟ بمعنى أدق : هل يمكن أن نجدنا الخلق الجديد مجرد حفريات غامضة بعد ملايين السنين ؟

هناك نظريات عدة يعرف رجل الشارع أكثرها .. منها نظرية غباء الديناصورات ونظرية الوباء ونظرية اصطدام النيزك .. النظرية الأخيرة هي الأشهر طبعاً وتقضى بأن الديناصورات كانت تتمتع بصحة ممتازة عندما هوى نيزك عملاق من الفضاء ، وهذا النيزك بعث سحابة كثيفة من الغبار فى الجو وبالتالي انتهى ضوء الشمس وبادت الحياة ..

هناك فجوة مناسبة جداً لهذه النظرية فى شبه جزيرة (يوكاتان Yucatan) بالمكسيك .. فجوة تدعى

(تشيكسولوب Chicxulub) ساعات الإيريديوم تؤكد أن هذا النيزك ضرب الأرض فى ذات وقت انقراض الديناصور .. وهذه هى نظرية K — T extinction التى ابتكرها علماء فى جامعة (كاليفورنيا) عام 1980 عندما .. ومعناها (انقراض الديناصورات فى الفترة بين العصرين الكريتايسى والثلاثى Cretaceous Tertiary border) ، وهذا هو ما يطلقون عليه (الموت الأعظم) .. وهو اهتمام علمى بدأ غربياً لبعض العلماء الذين اهتموا بكيف عاشت الديناصورات لا كيف ماتت ..

فى الحقيقة كانت هناك حادثة موت أعظم سبقت هذه ، هى موت ثلاثية الفصوص Trilobites .. ففى فترة من الفترات أبادت الحياة على كوكب الأرض تقريباً ، لكن الكائنات التى بدأت كانت صغيرة قليلة الأهمية وأقرب إلى الصراصير ، فلم تلق الاهتمام الكافى الذى ظفرت به كائنات عملاقة مهيبة مثل الديناصورات ..

منذ هذه اللحظة صارت ثقافة (النيزك - الذى - يمحو - الحياة - على - الأرض) شعبية جداً .. لاحظ أن كل فيلم ديناصور أو رجال بدائيين ينتهى بانفجار بركان أو حريق وفوضى عامة .. هكذا يُمحي كل شيء ..

لا بد أن كارثة كهذه أدت إلى أمطار حمضية وظلام شامل ، وهو ما يشبه الشتاء النووي ، أضف لهذا كثافة غير معتادة فى نسبة الإيريديوم فى التربة فى عدة مواضع ، مما يرجح أن أجزاء النيزك لم تترك مكاناً إلا وسقطت فيه .. لكن هذه النظرية لم تفسر سبب بقاء النباتات والثدييات حية .. كيف تحملت هذه الكارثة التى لم تتحملها الديناصورات العملاقة ؟

ثمة نظرية أخرى تتحدث عن انفجارات بركانية متعاقبة أدت إلى امتلاء السماء بسحب سود مما أدى لشلل الحياة ..

باختصار تقسم العلماء إلى *intrinsic gradualists* وهم من يؤمنون بكارثة على غرار البراكين جاءت من الأرض وأحدثت أضرارها بالتدريج .. و *extrinsic catastrophists* الذين يؤمنون بمصيبة جاءت من الفضاء الخارجى وأحدثت التغيرات بسرعة ..

كان د. (مصطفى) من الفريق الأخير ، وإن كان بعيداً جداً عن القضية وعن الدخول فى أى جدل بصدها ..

لم يكن يعرف أنه سيختبر هذه النظريات عن كئيب .. ومن مسافة قريبة جداً ..

تم الاصطدام كما قلنا ..

كان د. (مصطفى) يعرف ما قاله العلماء الأمريكيون عن هذا السيناريو .. العلماء الذين لم يعد لهم وجود على الأرجح ..

لو أن الاصطدام تم فى المحيط ، فمضى هذا موجات هائلة على السواحل .. سوف يتناثر الماء فى الجو وتغرق قارات بأكملها .. أما لو تم الاصطدام على اليابسة فلسوف تحدث زلازل كثيرة .. تبدأ حرائق غابات فى المركز نتيجة حرارة الصدمة ، ثم ينطلق الغتات فى الفضاء ويبدأ تفاعل من الصخور التى تطير ثم تسقط من جديد .. البعض يبقى معلقاً فى الجو ويحجب نور الشمس .. وهكذا تصير الشمس معتمة أكثر من القمر لسنوات .. تموت النباتات .. ربما تموت الحياة كذلك ..

كان د. (مصطفى) يمشى فى الشوارع التى يخيم عليها الظلام .. وينظر إلى الناس الملينين بالبشر لأن الاختبار القاسى قد انتهى ، ويقول لنفسه :

« ترى هل من مصلحتى أن أعلم ما أعلمه ؟ فى بعض الأحيان يكون الجهل أفضل .. »

لقد بدأت الزلازل .. وتهافت بعض النيازك .. بعض البنايات القديمة قد تصدعت ..

لكن مصر كانت بعيدة فعلاً عن مركز التصادم ؛ لذا لم يبد أن شيئاً تغير ما عدا الظلام وبعض الزلازل محدودة الخطر ..

كنت سيناريوهات نهاية العالم كما نعرفه مؤوفة لـ (د. مصطفى) .. يطلقون عليها لفظ التدلليل (تيوتواوكى TEOTWAWKI) وهو الحروف الأولى من عبارة :

(The end of the world as we know it) ..

يلخص العلماء الأمر كله بصراع بين قصيدتين .. القصيدة الأولى للشاعر (فروست Frost) يقول فيها :

« البعض يزعم أن العالم سينتهي بالنار ..

البعض يزعم أنه سينتهي بالثلوج ..

من تجارب مع الشهوات .. أضمر صوتي لمن يتحدثون عن النار .. »

القصيدة الثانية للشاعر (ت. س. إليوت Eliot) الذى يقول :

« هكذا ينتهى العالم .. ليس بالانفجارات بل بالانين .. »

ترى من الشاعر الأكثر شفافية ؟ علماء الغرب أعلنوا فوز (ت. س. إليوت) بكأس الشفافية والقدرة على التنبؤ .. إن نهاية الكون هي التفتت والاحتضار البطيء إلى أن يتلاشى .. هكذا يعتقدون طبعاً ..

الكون يتمدد بلا انقطاع منذ الانفجار الأول Big Bang وهو شىء لاحظته (أينشتاين) .. لاحظ كذلك أن سرعة الأجزاء البعيدة منه لا تبطن لكن تترادى .. هذا شىء غريب .. معنى هذا أن هناك مادة غريبة بين الأجسام الكونية أطلق عليه اسم (ضد الجاذبية) .. ذلك الاسم الذى عدل عنه فيما بعد واعتبره غلطة عمره .. الحقيقة أنه لو تمسك بهذا المفهوم لنال جائزة نوبل ثانية ، لأن علماء الغرب لم يعد لهم هم إلا دراسة هذه المادة الغامضة المضادة للجاذبية التى تجعل تمدد الكون يزداد سرعة كلما تقدم الزمن .. الكون يتمدد ويتباعد إلى أن يصير لاشىء تقريباً كما يرى علماء الغرب .. لكن فهم هذه الأمور مستحيل على كل حال من دون معادلات ، ومن دون أن تكون فيزيائياً ..

يقول عالم الفلك الأمريكى (مايكل سيرنر) : « لو كنت تعتقد أن الكون معقد وعسير الفهم ، فعليك أن تبتلع بعض أقراص الصداق لأن الأمور سوف تزداد سوءاً .. »

لكن هذه لم تكن نهاية الكون كما نعرفه .. كانت فقط نهاية حياة البشر على الأرض كما نعرفها ..

لقد بدأ السيناريو K - T فعلاً ..

نفس السيناريو الذى أدى لانقراض الديناصورات منذ ملايين السنين قد بدأ يعمل .. فقط هو موت بطيء قاس .. برد شديد لكنه غير كاف لقتل الحياة على وجه الأرض .. ظلام دامس .. صارت الشمس حلماً عسيراً ..

لكن أشنع ما فى الأمر لم يأت بعد ..

4- حياة الظلام ..

حدثت هذه الأحداث فى الثمانينات ..

الآن صارت الأمور أكثر وضوحاً وعرف الناس ما عرفه د. مصطفى منذ عشرين عاماً ونيف ..

لقد صار الظلام قاعدة .. لم يعد هناك بصيص نور عابث متسلل يجد طريقه لعيونهم كما كان فى أيام الكارثة الأولى .. بل صار ظلاماً كثيفاً حقيقياً كالذى تراه - أو لا تراه - إذا أغمضت عينيك الآن ..

لم يعد هناك صباح .. لا نهار .. لا شمس ..

الكل يعرف أن الشمس العزيزة لم تول ولم تتخل عن مهمتها أو تمارس الإنتروپى entropy كما توقع علماء الفيزياء ، لكنها كمحبوبة تناديك فى لهفة ، لكن تفصلك عنها أستار كثيفة ..

من حين لآخر تدوى عواصف رعدية مرعبة . ويهوى البرق ليحرق شيئاً .. عندها فقط كان الناس يتذكرون ما هو البصر .. لكن كان يتم إطفاء هذه النيران خلال ثوان لأسباب سنعرفها حالاً ..

هذا هو ما حدث بالضبط في بداية أيام أرض الظلام ..

مع الوقت تعلم الناس كيف يمشون عن طريق تحسس طريقهم ، وبالتالي كان لابد للسيارات أن تتقرب .. لا يمكن أن تقود سيارة في ظلام دامس حتى لو أردت .. اتقرب الطيران وعادت رقعة العالم ضيقة محدودة .. كل بلد منغلق على نفسه يطبع صحفه بطريقة (برايل) .. وظهرت ثقافة جديدة هي ثقافة العمى ..

هناك معارض للفن التشكيلي لذلك تدخلها كي تلمس اللوحات ، وتبدي إعجابك بامتزاج الخشونة بالنعومة .. مثلاً قال أحد النقاد عن معرض الفنان (نادر وهبة) :

- « الخطوط الحادة البارزة القاطعة توحى بالحتمية ، بينما المنحنيات الناعمة توحى بتكسار الروح .. الخشونة سمة عامة في كل اللوحات .. صنعها الفنان عن طريق تمزيق ورق الصنفرة ولصقه على مسار البشرية .. إنه يقول بوضوح إن الرحلة لم تنته بعد .. »

كان هناك ازدهار في الفنون السمعية .. تراجع الكتاب والتلفزيون كثيراً جداً لتتقدم التمثيلية الإذاعية والأغنية ..

هكذا انتهت من اللغة كلمات مثل (صباح الخير) و(نهارك سعيد) .. في البدء كان من يستعملها يجلب لنفسه السخرية ، وبعدها صار من يستعملها يجلب لنفسه اللوم ..

هناك أشياء لم يعد لها معنى .. ما معنى أن اللبن أبيض ؟ ما معنى أن البحر أزرق ؟ ما معنى أن فلاحاً أصفر من الحقد أو أحمر من الغيظ ؟ هذه ثقافة لم يعد فيها مكان للون ..

في البداية كانت السيطرة المطلقة في هذا المجتمع للعميان .. لقد كانوا كذلك منذ البداية ولم يخسروا شيئاً .. كانوا يستطيعون تدبير أمورهم واستمر الحال كذلك .. وكان من الممكن لو أنك تملك القدرة على الإبصار أن ترى رجلاً كفيفاً يقتاد مبصراً في الظلام .. هناك فيلم شهير لأودرى هيبورن اسمه (انتظر حتى يحل الظلام) .. في هذا الفيلم هي امرأة كفيفة تواجه غزواً من القنلة لدارها .. إنها ضعيفة هشة كعصفور صغير ، لكنها تقرر أن تقطع النور عن البيت ليسود الظلام .. بهذا فقد المهاجمين تفوقهم وصاروا دمي عاجزة في قبضتها .. إنها تعرف كيف تجد طريقها .. تعرف كيف تجد السكن .. تعرف كيف تهجم في الظلام وتقتل ..

تعلم الناس كيف يتعاملون بالنقود البارزة ، لكنهم وجدوا أنها مكلفة فعلاً ، لذا عادوا للأوراق المالية القديمة مع اتفاق عام على ثنيها بطرق تدل على قيمتها . لم يكن من مصلحة أحد أن يغش لأن هذا يعنى أن هناك من سيفضه غداً ..

هذا هو توازن الحقيقة .. لا تغش الناس كي لا يغشوك ..

كل هذا متوقع .. وعلى كل حال قنع الناس بالنور فى بيوتهم يشاهدون الأفلام القديمة التى تظهر أياماً كانت الشمس فيها تغمر المروج ، وقد افتنى الأثرياء مصابيح شمسية تعطى ذات دفء ووهج ونفع ضوء الشمس لتتير بيوتهم ..

أما ما لم يتوقعه الناس فهو أن تزحف الظلمة إلى بيوتهم ذاتها ..

نسب ما بدأت الطاقة تغنى فى الكوكب كله ..

لقد حار العلماء فى فهم هذه الظاهرة ، وقالوا إن السبب هو أن الطاقة فى جميع صورها تأتى من الطاقة الحرارية للشمس والنجوم .. لا توجد مصادر طاقة أخرى فى الكون .. من دون

شمس تفقد الأرض ما اخترنته من طاقة حركية وضوئية وصوتية وكهربية Entropy .. هناك نظريات عدة حاولت تفسير ما حدث لكن المهم فى الموضوع هو أن الطاقة بدأت تتلاشى ..

كان أول ما لاحظته الناس هو أن الأضواء خبت فى ديارهم .. ثم انطفأت تماماً ..

خرجوا للشوارع مذعورين ليكتشفوا أن أعمدة النور لم تعد تعمل ..

لم تعد هناك كهرباء ..

بعد هذا اكتشف كل من يملك محركاً أو سيارة عتيقة أنها لا تدور ..

حتى النار ذاتها لم تعد قادرة على تسخين شئ ولم تعد تبعث نوراً حولها .. ولا يعرف الناس متى ولا كيف اختفت القذاحات وأعواد الثقاب .. لم تعد هذه الأشياء تباع لأنها لم تعد ذات قيمة ..

هكذا كان العالم ينزلق بسرعة إلى فجوة مظلمة .. ظلام لا يمكن معه أن تضىء عود ثقاب أو مصباح كيروسين ..

كانت النباتات تموت ..

وتحولت مساحات هائلة من الأراضي الزراعية إلى صحراء ..
بدعوا يأكلون الحيوانات وهم مذعورون من اليوم الذى ينتهى
فيه هذا .. وكانت الحيوانات بدورها تموت بسرعة مذهلة لأنها
لم تعد تأكل النباتات ..

إلا أن العلماء اليابانيين توصلوا إلى تخلق نوع من الأعلاف
تأكله الحيوانات .. وبدأ تصدير هذا المنتج إلى كل بقاع
الأرض .. هكذا استطاع البشر إتقان الثروة الحيوانية قبل أن
تنقرض تمامًا ، وهذا يعنى انقراضهم هم أيضًا .. الديناصورات
لم تكن تملك عقولاً ولم تكن عندها هندسة وراثية أما البشر
فأحسن حظاً ..

لقد صار طعام الإنسان يتكون من اللحوم واللحوم واللحوم ..
عالم مصاب بالإمساك وبالطبع نقص فى الألياف مما يجعل
الطريق لسرطان القولون ممهداً ..

أما عن التسخين فالفضل يعود للعلماء الألمان الذين تمكنوا من
تطوير نوع من البكتريا التى تعيش فى الظلام ، وتقدر على إنتاج
تفاعل حرارى يصلح لطهى وجبة .. ربما يكفى للتدفئة كذلك ..

نال العالم الألمانى الذى طور هذه البكتريا جائزة نوبل فى
الفيزياء ، وقد تقدم ليأخذها وسط الظلام .. يحرك عصاه كى
لا يتعثر على المنصة .. فقط ليصطدم بملك السويد الذى يفتش
عنه إلى أن يجد يده فيدس فيها الجائزة ..

قال له ملك السويد :

- « متى تنتجون بكتريا قادرة على توليد الضوء ؟ »

قال العالم فى انفعال :

- « قريباً يا مولاي .. قريباً جداً .. سوف تعود البشرية
للإبصار .. أعد بهذا .. »

صحيح أنهم وجدوا جثة هذا العالم منقاة فى غابة مظلمة
قريبة من داره فى (لنדרهوف) بعد عودته من السويد
بأسبوع .. وجدها رجل يتحسس طريقه نحو داره واستغرق
رجال الشرطة وقتاً طويلاً حتى يعرفوا من القتل .. إن الطرق
البصرية كلها لا تصلح .. لكن أحداً لم يربط بين كلماته الأخيرة
وما حدث له .. إن انتقال الأخبار عاد شيئاً كما كان ، وهذا أدى
إلى بسط غير معتاد فى التعامل مع الحقائق والاستنباط
والاستقراء .. حينما عرف الناس أن هذا العالم قد مات كانوا قد
نسوا تمامًا ما قدمه للبشرية ، وقيل إنها عملية سطو مسلح ..

على كل حال كان الناس مستمرين فى عملية التأقلم ، وكما عرفنا صارت المستشفيات تنادى زبائنها بمكبرات صوت بدائية .. والمطاعم تقوم بالتهوية على أطعمتها ليشمها الناس .. يتساءل سائل كيف تعمل محركات المراوح إذن ؟ الإجابة أن الزنبرك عاد ليسترد أمجاده القديمة .. مروحة تعمل بد (الزمبلك) صارت تساوى أكثر من عشر مراوح كهربية .. لقد كان الناس يعيشون قبل عصر الكهرباء والسيارة وها هم أولاء قد عادوا لذلك . مع فارق مهم هو أنهم يجربون الحياة بلا نار ..

تطور الطب السريرى ليواكب العصر .. بعبارة أخرى انتهى دور البصر فى الموضوع واعتمد الكل على التحسس والسمع والدق .. بالطبع انتهى دور أجهزة الأشعة تماماً .. فرع كامل مثل طب العيون لم تعد له أهمية وتم ضمه إلى الجراحة العامة .. نفس الشيء حدث مع طب الأمراض الجلدية .. فى عالم لا يبصر لا يهم أن يمتلى جلدك بالقروح أو البثور .. لقد انتهت لفظة (قبح) تماماً .. فقط تطلب عون الطبيب لو شعرت بحكة أو التهاب أو ألم ..

الأمراض المعدية ازدهرت بشكل غير مسبوق .. هذا عالم لا يعرف التأثير المطهر لأشعة الشمس .. كل شيء يفسد ويتعفن ويتخمر .. لهذا سادت الرائحة الكريهة بقاعاً كثيرة من البلاد .. دعك من أن انعدام الرؤية جعل المرء أقل حرصاً فى عاداته الصحية .. تذكر قصة الشاعر الماجن اللعين (بشار بن برد) الذى كان أعمى ، ولم يتحرج من أن يتبول أمام ضيوفه وهو يكمل كلامه معهم .. عندما لاموه على ذلك قال لهم : أنتم مبصرون وأنا أعمى .. لهذا أولى بكم أن تغمضوا أعينكم ولا تنظروا ، أما أنا فلا حرج على ..

دعك بالطبع من أن غسيل الوجه وحلاقة شعر الرأس صارت أفعالاً نادرة ..

وفى فترة من الفترات كان الشاب يذهب لبيت الفتاة مع أهله .. هنا فقط يُسمح له بأن يتحسس ملامح عروس المستقبل هذه .. وكانت الفتاة بعد هذا تدور على نساء أسرته ليتأكدن من أنها جميلة متناسقة الملامح ..

هذا الإجراء كان مشيناً وغير إنسانى بالطبع ، لذا شاعت موضحة الصور المجسمة .. صورة بارزة للوجه أقرب إلى تمثال

يمكن أن يتحسسها العريس ليعرف إن كان أنف الفتاة الكبير قادراً على أن يملأ حياته بالسعادة أم لا ..

وببطء تسربت الصور المجسمة إلى كل شيء .. صارت وسيلة تعامل حكومية معروفة .. أما التوقيع فقد حلت محله بصمة الأذن ..

لقد ولد جيل كامل لم ير الضوء في حياته .. جيل من أطفال الظلام .. لكن أغلب هؤلاء كان يموت بأمراض نقص الشمس أو تتشوه عظامه بالكساح ..

كان ابن (سليم) من هذا الطراز .. لقد أدرك (سليم) أن ساقى الصغير تحولتا إلى قوسين كهذين (.. لكنه سعيد الحظ لأنه رزق بابن على الأقل في هذه الظروف الصحية المريحة ..

اليوم صار الصبي في العشرين .. وصار (سليم) الشاب في الأربعين .. لم تعد (فاتن) كما كانت .. لكن هذه أشياء يمكن أن تعرفها باللمس .. هذه التجاعيد على وجهها . الجلد الذى فقد نضارته .. لأنه لن يرى الشيب أبداً ..

لن يرى وجه ابنه أبداً ..

هذه أشياء تعذب أولئك الذين عاصروا النور . وهم يحكون عنه لأولادهم فلا يفهم هؤلاء شيئاً .. يحسبونه كلام عجائز لا أكثر ..

١٥٥

5- القومندان ..

يحكى (سليم) لابنه بعد العشاء الذى تكون من لحم ولحم
ولحم :

- « كنا نصحو من النوم لنرى الشمس .. جسمًا شديد الوهج
عملاقًا حارًا يبرز من الشرق .. »

يسأله الفتى :

- « ما معنى وهاج ؟ »

- « أى إنه .. أى إنه يبعث نورًا قويًا .. »

فيبتسم الفتى ويخجل من أن يسأل عن معنى النور .. فيقول
فى أدب :

- « هه هه ! »

يواصل الأب الكلام :

- « عندها كان القمر يتلاشى ومعه النجوم .. كأنه يتوارى

خجلًا من كل هذا البهاء .. »

فيسأله الفتى فى الظلام :

- « القمر ؟ تعنى ذلك الجسم الذى انفصل عن الأرض
يومًا ما ؟ أعتقد أن النجوم هى تلك الشمس الصغيرة التى .. »

- « بالضبط .. النجوم كانت جميلة .. لم يكن هناك شيء
أجمل منها .. فى قريتي كنت أرقد فى الحقل على ظهري أصغى
لصوت الحشرات الليلية ونقيق الضفادع فى الجدول .. وأنظر
للسماء فأتخيلها فلاحه حسناء عملاقة نثرت الترتير على
ثوبها .. »

- « ما معنى حسناء ؟ »

- « أى متسقة الملامح .. عندما تمرر يدك على جانب فمها
لا تصطدم بشيء .. لا تجد تلك الحفر التى تجدها على جانبى فم
أمك .. لا تحيط بعينيها تلك الأخاديد .. هذه هى الحسناء .. عم
كنا نتكلم ؟ »

يقول الفتى فى ملل :

- « عن معنى فلاحه حسناء تشبه النجوم التى .. »

- « نعم .. نعم .. ثم يدنو الليل من نهايته .. تقترب الشمس من الأفق الشرقى .. عندها يصطبغ الأفق بلون الدم مخلوطاً بلحمة قرمزية وردية بنفسجية .. »

- « ما معنى هذا كله ؟ وما هو لون الدم ؟ »

- « إنه أحمر .. »

هكذا كان حوار الطرشان يستمر عدة ساعات .. وذلك الشعور الممض الذى يعذب (سليم) بأنه ممل ومخبول فى نظر ابنه .. يتذكر جده عندما كان يحدثه عن الخمسة القروش التى ابتاع بها بيضاً ورطلى لحم وزيتاً وخبزاً ثم تنزه بما بقى .. نفس الشعور ..

هكذا كان يفضل الصمت ..

فى تلك الأعوام طرأت تغيرات كبرى على العالم ..

لا يعرف أحد متى صارت حقيقة واقعة لكنها كانت تدريجية جداً .. مثلما ترقب أنت الغروب فى عالمنا فترى الشمس ساطعة

ثم تتداخل بعض الظلال والألوان لا يهتم .. ما زال الضوء موجوداً .. تزداد الظلال كثافةً ويصطبغ الأفق باللون القرمزى . لا تدرى متى ولا كيف وصلت لهذه النتيجة .. لكنك صرت فى الليل فعلاً وهناك كوكب الزهرة يضىء وحيداً فوق البنايات فى خط الأفق .. متى صار النهار ليلاً ؟ لا تستطيع أن تمسك بلحظة فاصلة ..

متى سمع الناس عن القومندان ؟

لا يدرون ..

متى امتلكت الشرطة تلك الأجهزة التى تتيح لها الرؤية ؟ متى صارت لهم سياراتهم ؟

لا أحد يذكر ..

فقط يحمل الناس ذكرى مبهمه عن الرجل الذى لم يره أحد والذى اتخذ مقره فوق قمة جبل (إفرست) .. فى أعلى موضع من العالم يمكن لهذا الرجل أن يرى ضوء الشمس لأنه يعطو طبقة سحب الغبار التى تغلف العالم ..

من هذا الرجل؟ من أين جاء؟ لا أحد يعرف .. يقولون إنه راهب من رهبان التبت .. لكنه قوى جداً تسانده عصابة قيل إنها من الجنرالات السابقين المنشقين على جيوش الصين والاتحاد السوفييتي سابقاً ..

هذا الرجل جاء حرفياً ليحكم العالم .. من مقره الشبيه بمقرات أشرار أفلام (جيمس بوند) في السينما يمكنه أن يراقب كل شيء .. يمكنه أن يقصف بصواريخه أية دولة متمردة ..

لكن النقطة الأهم هنا هي أنه يرى بينما الناس جميعاً لا يرون .. إنه فوق مستوى الظلام .. بالتالي هو قوى جداً كأي مبصر يسيطر على مجموعة من العميان ..

ماذا يريد هذا الرجل؟

المنشور الذي كتب بلغة (براييل) والذي رددته مكبرات الصوت في كل مكان يقول:

« القومندان يحكم العالم وليس بوسع أحد أن يقاومه .. القومندان لا يطالبك بشيء ولا يرغبك على التخلي عن وطنك أو دينك .. المسلمون سيظلون مسلمين .. المسيحيون سيظلون مسيحيين .. اليهود يبقون يهوداً .. وكذا يبقى البوذيون والكونفوشوسيون والهندوس .. فقط يطلب القومندان أن تقدموا له نسبة من دخلكم مقابل حمايتكم .. »

« القومندان يرى .. لهذا يقدر على حمايتكم كما أنه يقدر على إيدانكم .. إن القومندان دان من الشمس؛ لهذا لديه موارد الطاقة ولديه النباتات التي استزرعها على قمة الجبل .. »

« الظلام مقدس . لهذا يجب أن تعيشوا فيه أبداً .. النور دنس يلوث الظلام لهذا يحرم عليكم البحث عنه .. لا أحد يشعل ناراً .. لا أحد يبحث عنها .. إن النار حق أصيل للكهنة وليس من حق سواه .. »

« إن من يجروء على استعمال النار أو البحث عنها يرتكب إثماً يقترب مما يسميه أتباع الديانات بالكفر .. جزاء استعمال النار بأي شكل هو الموت .. العذاب ثم الموت .. »

« القومندان لا يطلب منكم التخلي عن ديانتكم أو معتقداتكم أو كرامتكم .. كل ما يطلبه هو أن تتخلوا عن كبرياتكم .. وجزء بسيط من مالكم .. »

كان الذعر الذى سببه هذا المنشور يفوق قدرتى على التعبير ، لكن الناس لا يذكرون فعلاً متى رأوه لأول مرة .. كما قلت سابقاً كان كل ما يتعلق بهذا القومندان يتم بشكل تدريجى ..

كان الناس لا يرون .. كانوا فى حالة وهن وهشاشة شديدة ، وهكذا خضعوا بلا مناقشة لهذا الكلام .. فى البدء شعروا أن الرجل يستدرجهم إلى نوع من العبادة ، وتأهبوا للثورة ، ثم رأوا بأنفسهم أنه لا يطلب شيئاً سوى المال والنفوذ ..

هكذا خضعوا له ..

أرغموا أنفسهم على الحياة فى ذلك العالم المغلق المظلم الذى اختاره لهم .. هذا الوضع الذى يطلق عليه الغربيون اسم brain in a vat أو (المخ فى وعاء زجاجى) .. حياة كاملة مزيفة تعيش فيها راضياً منعزلاً عن العالم الخارجى الحقيقى ..

فى الوقت ذاته تقريباً بدأت ظاهرة دوريات الشرطة .. لقد صارت الشرطة فى كل البلدان خاضعة لهذا القومندان .. وقد لاحظ الناس أن سيارات هؤلاء تعمل برغم مشكلة الطاقة العامة .. معنى هذا أنهم طوروا تقنية خاصة بهم .. قيل إنها الخلايا البيولوجية ..

هنا تذكر الناس - بعضهم على الأقل - العالم الألمانى الذى وجد قتيلاً .. كان هذا العالم يحلم بأن يولد الضوء بطريقة بيولوجية .. يمكن لذوى الخيال الخصب أن يتصوروا أنه قتل لهذا الغرض بالذات .. لمنعه من القضاء على الظلمة وهى السلاح الأقوى فى يد القومندان . دعك من أن تجاربه على الأرجح هى التى جعلت هذه المحركات تعمل .. لا بد أن هناك من سرق أبحاثه ونفذها وقتله كي لا يقدم أكثر ..

النقطة الثانية هى أن هؤلاء يبصرون . وكم من شابين وقفا يتهاوسان فقط ليشعرا بأيدي رجال الشرطة الغليظة على كتفيهما .. متى جاء هؤلاء وكيف ؟ لا يوجد سوى احتمال واحد هو أن رجال الشرطة منتشرون بشكل لا يمكن تخيله ، وأنهم يرون .. لا يمكن سوى لإنسان يرى أن يقوم بهذه العمليات .. وفيما بعد عرفوا أن هناك أجهزة إبصار خاصة يضعها رجال الشرطة .. إنها قريبة جداً من أجهزة الرؤية الليلية التى نعرفها نحن ، لكنها ذات مرشحين .. مرشح يقيس الحرارة المنبعثة من الأجساد . ومرشح يقيس الأشعة الكونية الشحيحة التى تصل للأرض .. ومن هاتين الصورتين تتكون صورة عالية الدقة كأنك تراها فى شمس الصباح ..

هكذا تتحرك الشرطة في كل مكان وسط أناس لا يرون شيئاً ..
 هذه قوة مروعة .. نفس القوة التي ينعم بها أى جيش يملك
 معدات الرؤية الليلية .. تصور ما يقدر عليه جندي مكافحة
 الشغب الذى يلبس قناعاً مضاداً للغازات وسط متظاهرين يحرق
 الغاز المسيل للدموع عيونهم .. إن قوته لمطلقة .. إنه
 يرى ..

كان الناس في كل العالم يعرفون أن هناك نهباً يجرى لهم ..
 فى مصر مثلاً لم يكن أحد يعرف أن المتحف المصرى صار
 خاويًا وإن سرت إشاعات كهذه .. فى فرنسا لم تعد هناك لوحة
 واحدة فى اللوفر .. ما يتحسسه الزوار والسياح هو هياكل
 مزيفة ..

أين ذهبت هذه الثروات ؟ على الأرجح هى هناك فى جبال
 الهيمالايا .. إن القومندان قد قرر أن يحب الفنون بالإضافة إلى
 نفوذه ..

لكن أحدًا لا يتكلم عن هذه الأمور ، لأنه قد يفاجأ بأن جاره
 ليس وحده .. يمكن أن تتكلم ربع ساعة ثم تكتشف أن هناك
 عشرة رجال شرطة فى الغرفة معك ..

وقال الحكماء :

- « ما الذى يهم فى بعض التمثيل ؟ إن العلم يتجه نحو النهاية
 بسرعة جهنمية .. فلماذا تهتم بأمر كهذه ؟ »

6- الضوئيون ..

د. (مصطفى) كان هو من بدأ الشرارة في مصر على الأقل ..

العجوز الواهن الآن .. لم يعد هو ذلك الرجل الممتلئ قوة وحيوية وعلماً .. احتفظ بعلمه وقوته النفسية وفقد كل شيء آخر ..

لقد بدأ الأمر بلقاء مع (سليم) .. الظلام يجعلك عاجزاً عن معرفة هل أنت وحدك أم أن هناك خمسين شرطياً يحيطون بك ، لكنه طلب من (سليم) أن يأتي له في داره هذه الليلة .. لماذا ؟

- « عندما نلتقى ستعرف .. »

في التاسعة مساء دخل (سليم) إلى بيت أستاذه العجوز ..

لا معنى بالطبع لليل ولا النهار في ذلك العالم ، لكن الحاجة إلى تقسيم اليوم إلى ساعات قديمة جداً لدى الإنسان . وقد

شاعت الساعات الناطقة بينهم ، كما أن هناك ساعات تعتمد على أن يتحسسها المرء بأتمامه ليعرف موضع العقارب .. كلها تعمل بالترنبرك طبعاً ..

في الظلام جلس (سليم) .. ظلام دامس طبعاً ، لكن هناك درجة ما من التكيف البصرى يعرفها من يبقون في الظلام لفترة طويلة .. عندها ترى أجساماً رمادية كأنها الأشباح ..

وقد شعر بمن يقترب منه ثم شعر في كفه بعلبة من العصير .. إنه د. (مصطفى) .. فكيف يتحرك بهذه البساطة في الظلام ولا يتعثر ؟

- « ما رأيك في هذا كله ؟ »

- « رأيي في أي شيء ؟ »

- « في الظلام الذي كتب علينا أن نواجهه .. »

- « هو قدرنا .. »

قال الأستاذ العجوز وهو يجلس جواره :

- « نعم .. لكن لا نقبل أن يأتي أحدهم ليعيش فوق الغيوم وينعم وحده بالنور والنار وهو بشرى مثلنا .. من أعطاه هذا الحق ؟ »

قال (سليم) فى بساطة :

- « حق القوة .. هو استطاع هذا ففعله .. »

قال د. (مصطفى) فى إتهاك :

- « أنا لن أعيش أكثر .. أعرف أن أيامى هنا معدودة وأن إحدى قدسى فى القبر بالفعل ، لكننى أكره أن أرى البشر يتعذبون قبل رحيلى .. هذه ليست حياة .. يجب أن تصير النار والكهرباء من حق الجميع .. »

فى دهشة قال (سليم) :

- « أنت تعرف تلك الظاهرة المحيرة التى لم يجد العلماء لها تفسيراً .. النار لم تعد ذات قيمة .. ثلاثى وهجها وما تبعه من نداء .. حتى لو تجاسر أحد على استخدام النار اليوم فلن يجنى منها إلا الموت .. »

- « ما لدينا من معلومات يقول إن هذا القومندان اختص نفسه بتقنيات حديثة .. عنده نار حقيقية تدفئ وتحرق .. لديه طرق لتوليد الكهرباء الفاعلة .. لقد اختص نفسه بكل ما يجعل الحياة ثمينة بينما نحن هنا نتخبط فى الظلام .. نقتلنا الأوبئة ويولد

أطفالنا مصابين بالكساح .. لو كانت عندنا كهرباء لنجحن فى تعريض الأطفال لشمس صناعية .. سوف تضاء الشوارع فلا يمشى الناس متخبطين يتحسسون الجدران .. »

قال (سليم) نافذ الصبر :

- « ليكن .. هذا ظلم .. ولكن ماذا يمكن عمله ؟ »

- « نحن قلّة .. لكننا نعرف كيف نجد بعضنا .. »

فى هذا الكوكب كانت هناك ثورة يوليو كذلك ، وقد توقع (سليم) أن يكلمه (مصطفى) عن تنظيم اسمه الضباط الأحرار كما رأى فى عشرات الأفلام السينمائية .. الجو كله يوحى بذلك .. الرجل يحاول ضمه إلى تنظيم سرى يحارب ذلك اللص الذى يدعو نفسه بالقومندان ..

قال د. (مصطفى) :

- « نحن نطلق على أنفسنا اسم : (الضويين) .. هؤلاء الذين يؤمنون بحق الجميع فى الضوء .. الضوء ليس حراماً أو جريمة فيما عدا أنه يضعف من سيطرة ذلك الطاغية .. هناك ضويون فى اليابان وفى ألمانيا وإيطاليا والسودان وتزانيا

والهند .. فى كل مكان من الأرض .. مهمتنا الحالية هى أن نجد بعضنا .. بعد هذا ستأتى اللحظة التى ننتزع فيها حقنا فى الحياة .. لقد استلبنا النيزك ضوء الشمس .. فلن نترك ذلك القومندان يسلبنا شيئاً آخر .. «

قال (سليم) فى حيرة :

- « ولماذا فكرت فى بالذات ؟ »

- « لأنك صادق القلب .. أعرف أنك صادق القلب .. صحيح أنك جاهل لكن الغباء لم يجعل المرء شريراً قط .. «

هل هى مجاملة أم سباب ؟

- « شكراً .. «

هنا سمع (سليم) صوت الحركة الخافتة فتوتر ، ثم قدر أن هذا حيوان يتسلل فى ركن بالدار .. لكن د. (مصطفى) صاح وهو ينتفض :

- « إنه هنا ! لقد تسلل أحد (البصاصين) هنا ليسمع ما نقول !

لو غادر الدار لانتهى أمرنا ! «

ولم يدر (سليم) إلا وجهاز ثقيل يوضع على رأسه .. كأنها خوذة تتصل بأسلاك .. وسمع الأستاذ يقول :

- « أنا لن أستطيع مواجهته ! هلم استعمل هذا المنظار وابحث عنه ! «

للمرة الأولى منذ أعوام لا حصر لها يرى (سليم) ..

كانت الصورة واضحة نقيّة ، وإن اكتسبت صبغة خضراء مرعبة .. إنه يرى .. بالفعل يرى الشقة ويرى وجه أستاذه العجوز الذى لم يره منذ أعوام .. الأستاذ الذى صار كفيفاً تماماً الآن .. يرى المنضدة الصغيرة وفوقها علبة العصير ..

رباه ! ما أثنم الضوء ! وما أروع التفاصيل التى نسيناها فى الظلام !

إن كان هذا الجهاز على رأس الأستاذ عندما قابله ، ولهذا كان العجوز يتحرك بحرية كاملة وسلاسة ..

- « هلم ! لا تقض الليل كله هنا ! «

نهض (سليم) وهو يشعر بأن ما يحمله على رأسه يزن أضناناً ..

خرج إلى مدخل الشقة فرأى البصاصة يحاول الفرار ..

كان رجلاً نحيل القامة فى الأربعين من العمر يضع على رأسه جهازاً مماثلاً ، ويحاول فى رفق أن يفتح باب الشقة ليغادرها من دون جلبه .. يبدو أنه أدرك أن أمره لتكشف .. كانت قوته تكمن فى جلوسه مع كفيفين .. ثم أدرك أن أحدهما مبصر وأن ما اكتشفه خطير سيسيل له لعاب رجال الشرطة .

للمرة الأولى يتحرك (سليم) بسرعة منذ أعوام .

للمرة الأولى يسترجع أيام صباه .. لقد جعله الذعر ينفذ أعواماً من السكون ..

لقد وثب من فوق الأريكة .. وسرعان ما هوى على البصاصة ليسقطه أرضاً ..

كانت هناك طريقة واحدة سهلة للقتال .. لقد انتزع المنظار من فوق رأس الرجل ..

وفى اللحظة التالية صار البصاصة عاجزاً عن رؤية أى شيء .. لقد سقط على الأرض وراح يتحسس الجدران محاولاً النهوض فالفرار .. الآن صار هذا مستحيلًا ..

لقد وجه له (سليم) أعنف ركلة ممكنة فى نفيه ، ثم تلاها بركلة أعنف فى وجهه .. أما نهلية المعروفة فكنت أن وثب فى الهواء ثم هبط بقدميه معاً على ضلوع البصاصة ..

كانت هذه هى النهاية .. وسرعان ما تكوم الرجل بلا حراك .. من فمه يخرج سائل أخضر .. على الأرجح هو دم ما لم يكن كائنًا فضائياً .. وشعر (سليم) بالآلام فرحته تستيقظ .. القرحة التى لا تتركه فى حاله أبدًا ..

سمع صوت د. (مصطفى) يتحسس طريقه نحوه ..

مد يده يساعده على الوصول إليه ، فقال الأستاذ العجوز :

- « أعتقد أنهم سمعوا دعوتى لك فى دارى فأرسلوا من استبق موعد اجتماعنا كى يعرف عما نتكلم بالضبط .. يمكن أن يدخل معك ولا ندرك ذلك .. ربما كانوا يراقبونك أو يراقبوننى .. لا أحد يعرف .. كل إنسان مهذب فى هذا الزمن .. المهم أنك قد تورطت فى القصة حتى أنيك ولم يعد من داع لسؤالك عما إذا كنت تريد الانضمام لنا ! »

7 - الضوئى الجديد ..

عندما تملك قدرة الإبصار يكون بوسعك أن تتخلص من جثة بسهولة ..

قام (سليم) باختلاس النظر خارج الدار فلم ير إلا المكفوفين العاديين يتحسسون طريقهم .. كل واحد منهم تدير عيناه بذلك البريق الأحمر المخيف المميز للرؤية الليلية ..

قام بأول إجراء مهم وهو أن أفرغ معدته .. لا بد من أن تخرس ألام القرحة أولاً ، ودس فى فمه بعض أقراص المضغ التى لها طعم النعناع .. هكذا بدأ يشعر بالراحة ..

جرّ ضحيته التى لفظت أنفاسها الأخيرة خارج دار د. (مصطفى) .. ثم مشى بها بضعة أمتار إلى أن بلغ النيل .. قام بملء جيبي الفقيذ بالحجارة ثم دفعه دفعا إلى أن سقط فى المياه العميقة رمادية اللون ..

طش ش ش !

بالفعل أدرك (سليم) فى هذه اللحظة بالذات أنه تورط بشدة ..

لقد صار من (الضوئيين) ..

أراد أو لم يريد !

التفت الكثيرون عندما سمعوا صوت الارتطام بالماء .. لكنهم كانوا عاجزين بالطبع عن فهم مصدر الصوت .. هكذا وصلوا طريقهم ..

في عالم من المكفوفين سوف يستغرق الأمر دهرًا إلى أن يجدوا الجثة ، ودهرًا إلى أن يعرفوا صاحبها ، ودهرًا إلى أن يشكوا في الدكتور (مصطفى) .. في هذا الوقت ستكون الأسماك قد قامت باللائم ..

من الغريب أنه قام بأول عملية قتل في حياته ، هو الذي لم يؤذ ذبابة من قبل .. لكنه لم يمعن التفكير في الأمر ، لأنه غرق في عالم ثرى بكل التفاصيل البصرية التي حرم منها .. هكذا نسي الحقيقة : إنه لن يعود أبدًا كما كان ..

عندما عاد إلى د. (مصطفى) كان رأسه يزدحم بالأسئلة ..

لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا يقينًا : هو لن يعود إلى العسى .. لقد وقع في غرام البصر ، حيث كل شيء واضح ومكتمل ومنطقي ..

وتمنى لو يأخذ النظارات ليراها ابنه ليعرف معنى النور .. الوغد لا يصدق أن هناك شيئًا مثل البصر والألوان .. حان الوقت كي يعرف ..

لكن د. (مصطفى) سأله على الفور :

- « هل تخلصت من نظارات الرؤية الخاصة به ؟ »

قال في ضيق :

- « لا طبعًا .. سوف أحتفظ بها... »

- « لا .. إنها نظارات حديثة .. هل ترى فيها قطعة نحاسية

تشبه هوائى المذياع تخرج من العدسة اليمنى ؟ »

تفحص النظارة ثم غمغم :

- « نعم .. »

- « إذن هي كما توقعت .. هذا الطراز الحديث مضاد

للفقد .. إنه يرسل إشارة راحة بمكانه يتلقاها رجال

الشرطة وتعرفها كلابهم ، وهي تقتية هدفها ألا تفقد نظارة

واحدة .. معنى هذا أن هذه النظارة ستخبر رجال الشرطة

بمكاننا .. »

قال (سليم) مقتاضًا :

- « برغم هذا أنت تملك واحدة .. تلك التى ألبسها الآن .. »

- « النظارة التى معى من الطراز العتيق حينما لم تكن هذه الإشارات قد عرفت بعد .. تخلص من النظارة يا ولدى حتى لا تندم .. وثق أننى أعرف ما أقول .. »

هكذا لم يعد أمامه سوى أن يخرج فى حذر ليلقى بالنظارة الثمينة فى مياه النيل ..

وحينما عاد من جديد لاهنًا قال له أستاذه العجوز :

- « أعدك أننا سنجد لك نظارة جديدة .. وحتى يأتى ذلك الحين احتفظ بنظارتى .. أنا قد استمتعت بالبصر فترة طويلة جدًا من حياتى منذ سرقت هذه النظارة .. لكن تذكر .. لا تتفاخر بها ولا تتباه بما اكتسبته من قوة على الآخرين .. لا تلعب دور (سوبرمان) لأن هؤلاء قادرون على العثور عليك وتدميرك .. »

كان الأمر أشبه بشعلة الثورة التى يتناقلها جيل من جيل .. فقط الشعلة فى حالتنا هذه مجرد نظارة رؤية ليلية .. يبدو الأمر عجيبيًا ، لكن ما الشيء الذى ظل كما هو فى هذا العالم ؟

هكذا صار (سليم) من الضوئيين .. الحقيقة أنه لم يعرف ما المطلوب منه ولا مستقبل هذه الحركة .. فقط كان يخفى النظارة فى داره ، وأحيانًا يأخذها فى جولات ليلية حذرة .. لو رآه أحد يلبسها لكان الثمن هو جريمة قتل أخرى .. قتله أو قتل من رآه ..

وفى هذه المرات القليلة عرف أن تغيرات هائلة قد طرأت على البلاد لكن أحدًا لم يرها ..

لقد سرقت تماثيل فرعونية مهمة جدًا ووضعت مكاتبها هياكل تقع من يتحسس .. متحف (محمد محمود خليل) بلا لوحة واحدة لكن هناك سطوحًا خشنه توحى لك بأن هذه لوحات .. بعض الناس لا يتقاضون راتبًا ولكن يتقاضون أرباحًا بيضاء تم ثبيتها بشكل يوحى بأنها منات الجنيهات ..

عند بعض الجزارين وجد كلابًا مسلوخة كاملة ، لكن لا أحد يعرف هذا سوى الجزار نفسه .. هناك بعض الأثرياء يملكون تلك النظارات الخاصة التي تتيح لهم نعمة البصر ، لكنهم ينكرون هذا طيلة الوقت .. وقد أتاحت لهم هذه المزية سبقًا هائلًا على الفقراء .. دعك من أسبابهم الأثرياء الذين يتسللون بهذه النظارات إلى غرف الفتيات المكفوفات أو أماكن استبدال الثياب ..

الحقيقة أنه كاد يفضح نفسه أكثر من مرة ، لأنه حسب أن من يلبس هذه النظارات هو بالضرورة ضوئى مثله .. ثم أدرك أن الضوئيين لا يمشون فى الشوارع علانية بنظاراتهم .. دعك من أن نظاراتهم عتيقة الطراز دامت لا يمكن اقتفاء أثرها .. ثمة صفة مهمة أيضًا وتستحق أن نذكرها هنا : إنهم متأنقون يعنون بثيابهم وشعرهم .. كل الناس لا تعرف كيف تبدو من الخارج لكن هؤلاء يعرفون ..

وقد جازف ذات مرة وقدم نفسه لواحد من هؤلاء ..

الرجل الذى قدم نفسه له كان يقف جوار قضيب السكة الحديدية .. السكة الحديدية التي لم تعرف قطارات منذ دهور ..

كان الرجل نحيلًا فارح الطول فى الخمسين من عمره .. متأنقًا مصفف الشعر نظيفًا .. وكان يعد الفلنكات التي تمت سرقتها أو انتزعت من مكانها ..

دنا منه (سليم) فأجفل الرجل ..

بدا مظهرهما ككائنين فضائيين يتلاقيان بهذه الخوذات الغريبة التي تجعل رأسيهما أقرب إلى رعوس النمل ..

قال له مهدنًا من روعه :

- « لا تقلق .. أنا مثلك .. لست منهم .. أنا منكم .. »

نظر له الرجل فى تردد ثم قال :

- « مرحبًا بك .. أنا صرت ضوئياً منذ عام .. »

- « وأنا منذ عامين .. »

- « أنا محام .. »

- « وأنا جيولوجى .. طبعا لا عمل لى .. أحيانا أكسب رزقى

إذ أراقب اللحوم عن طريق شمها وتحسسها .. »

وصمنا بعض الوقت وظلا يتبادلان النظرات ثم تبادلوا العناوين وافترقا ..

8 = سر ثقيل ..

على فراش الموت قال له د. (مصطفى) :

- « لا أتوقع أن تستمر الحياة على كوكب الأرض كثيراً من بعدى .. لا يمكن لكوكب أن يعيش من دون نور شمس لأن الحياة العضوية سوف تذبل مع الوقت .. صحيح أن السيناريو أبداً مما توقعت لكن هذا لا يغير شيئاً .. الكوكب مقضى عليه بالهلاك .. »

أمسك (سليم) يد أستاذه في الظلام وهمس بصوت مبجوح :

- « ألا تتوقع أن تنقشع هذه السحابة مع الوقت ؟ »

- « ربما .. لكن انقراض البشرية سيكون أسرع .. »

ثم سعل بعض الوقت قبل أن يقول :

- « سوف تكون أعواماً معدودة لكنى أتمنى أن تقضوها في

كرامة .. لهذا لا بد من أن تتصل بالآخرين .. »

ابتسم (سليم) ابتسامة لم يرها الآخر لأنها كانتا معا في

الظلام ، وقال :

محادثة بليغة جداً ..

كان هذا أعمق تفاعل مع الضوئيين مر به (سليم) .. وقد ملأه رضا ..

يوماً ما سوف نلتقى .. يوماً ما سوف نعرف ما ينبغي عمله ..

إنه الآن يعرف عشرة ضوئيين على الأقل ..

- « لكن ما الجدوى ؟ فى عصر بلا طائرات لا يمكن التفكير فى مجرد الوصول إلى الهيماليا .. »

- « هناك طائرتان فى العالم اليوم .. أنت لا تعرف هذا لكنها الحقيقة . يجب أن تمسك ببداية الخيط .. وهناك ما هو أهم .. »

ثم قرب أذنه من أذن تلميذه وهمس له بالسر ..

السر الذى يمكن أن يغير كل شيء ..

مر عامان على وفاة الأستاذ ..

(سليم) فى العقد الخامس من عمره .. لقد صار أكثر شعره أبيض وإن لم ير أحد هذا .. فقط يعرف الناس من خشونة صوته وإنهاكه صورة عامة عن سنه ..

(سليم) مثقل بسر رهيب ..

(سليم) يعرف كل الضونيين ، ويتابع أخبار إعدام بعضهم فى الصحف المنشورة بحروف (برايل) .. يعرف أنهم ليسوا حمقى .. ليسوا أقل ذكاء منه .. لقد سقطوا فى يد الشرطة ليس

لأنهم أغبياء مهمنون وإنما لأن أجلهم حان .. لا شيء يحميه ولا شيء يمنع من أن يكون هو القادم ..

لكن الأمور تتساوى فى ذهنه ..

لقد تحمل بمهمة شاقّة ، وعليه أن ينفذها ..

هكذا كان يقضى الوقت بجوب الشوارع .. أحياناً يحمل النظارات وأحياناً لا يحملها ..

فقط هو يراقب كل شيء ويحاول معرفة من يمكن أن يكون من الضونيين مثله .. كانت هناك منشورات بحروف (برايل) وقعت فى يده ذات مرة .. المنشورات تدعو الشباب إلى أن يكونوا من الضونيين .. أن يكون لهم الحق فى استعمال العينين .. لم يعرف قط من طبع هذه الأشياء ، لكنه تحمس لدى رؤيتها .. أعنى لدى تحسسها ..

كان بجوب شوارع العاصمة عندما حملته قدماه إلى ميدان التحرير فى ذلك اليوم .. كان هذا من الأيام القليلة التى جرى فيها على وضع النظارة كل هذه المسافة ..

فجأة أدرك أن هناك حركة غير عادية ..

الكلاب قد خرجت .. إنها تنبج باستمرار ، وهو يعرف هذا الطراز من العمليات الأمنية .. السيارات تندفع فى الشوارع .. السيارات والكلاب لا تخرج إلا لادى وجود جريمة شنعاء تتعلق بالنار أو النور .. هذه هى الأسباب الأهم التى تدفع هذه القوى للتحرك . هكذا أخفى النظارة فى عصابة تحت طيات ثيابه .. من الوارد جداً أن يراه رجال الشرطة الآن .. سوف يطلقون الرصاص ثم يتفاهمون ..

سمع أن هناك اثنين أشعلا النار وارتكبا جريمة تلويث الظلام فى أحد الفنادق ..

وعندما تجاسر على وضع النظارة من جديد رأى هذين الشابين المتمثلين اللذين يلبسان الأسمال ويتحسسان طريقهما ، ويبدو أنهما سمعا نداء المتحف المصرى فقرررا أن يتواريا فيه ..

هكذا دخل المتحف مجازفاً متوقفاً فى أية لحظة أن يراه أحد لابسى نظارات الرؤية الليلية ..

رأى الشابين يقفان فى قاعة العمارنة .. رأى الشاب يشعل القداحة . إنه ساذج لا يدري بحق أية جريمة ارتكبها ..

من الغريب أن هذه النار تختلف عن نار عالمه .. إنها نار قوية قادرة على أن تكشف أشياء ، بينما نارهم - لو وجدت - واهنة ضعيفة لا تمنح الدفاء ولا النور ..

إنهما يتصرفان كأنهما لا ينتميان لهذا العالم ..

بل هذا صحيح .. بالفعل هما لا ينتميان لهذا العالم ..

وارتجف ..

الآن فقط ولهب القداحة يضىء القاعة يتذكر ما قاله أستاذه :

« أنا لا أؤمن بنبوءات العرافين وكل هذا الهراء ، لكن هناك إشاعة قوية يتناقلها الضونيون عن شابين .. ذكر وأنثى .. متشابهين كأنهما أخوان .. قادمين من عالم آخر .. يقولون إنهما سوف يقضيان على سلطة القومندان .. هذا كلام فارغ فى رأى .. لا أحد يقدر على تدمير القومندان سوى أبناء هذا العالم وهذه اللحظة .. »

كان هذا قبل أن يصارحه بالسر الأكثر خطورة ..

الجزء الثالث

القومندان

يا مدينة الوهم

تحت الضباب الأسمر .. ضباب فجر الشتاء ..

على جسر لندن تدفق جمع غفير ..

لكثرته نسيت أن الموت حصد جمعاً غفيراً

وصعدت آهات قصيرة كل حين طويل

وثبتت كل بصره أمام خطاه ..

على التل تدفق الجمع ثم هبط إلى شارع الملك ويليام ..

هناك رأيت رجلاً أعرفه فاستوقفته صائحاً:

- « أي (ستسون) !

يا من كنت معي على السفائن في ميلاي ..

هل بدأت الخضرة تنبت من الجثة التي زرعتها في حديقتك العام

الماضي ؟

ألا فلتطرد الكلب بعيداً عن جنباتها

وإلا نبش بأظفاره فأخرج الجثة من جديد .. »

من قصيدة الأرض الخراب لـ (ت.س. إليوت)

ترجمة د. (لويس عوض)

على كل حال كان الأمر قد انتهى الآن لأن الغريبيين رأياه ..

وأدرك أنه يجب أن يقدم لهما يد المساعدة قبل أن يضيعا ..

سوف يأخذهما معه ويحميهما ..

والأهم .. يجب أن يعرف من هما حقاً ومن أين جاءا ..

* * *

1- أسطورة ..

يقول (سليم) كالحالم :

- « أرض الظلام ! قرأت عنها فى كتب الأساطير .. لقد جربت أن أقرأ مستعملاً هذه النظارات برغم أنها ترهق البصر .. بالتأكد ليست الطريقة المثلى للقراءة ، لكنى وجدت بعض الكتب القديمة ورحت أتصفحها للمرة الأولى من دون طريقة (برايل) .. ثمة كاتب أمريكى أصيب بفقدان البصر من ثم راح يقرأ بطريقة (برايل) ، ويقول إن المزية المهمة لهذه الطريقة هى أنك لا تحتاج لإخراج يدك الدافئة من تحت الغطاء لقلب الصفحة ! هذه هى المزية الوحيدة فعلاً ، وفيما عدا هذا أوشكت أن أرقص طرباً عندما رأيت الحروف المكتوبة .. ألا بورك فى حرف اللام عندما يلتقى مع الألف فى عناق ساحر كجبعة أسطورية .. ألا بورك فى لغة الهاء السحرية .. ألا بورك فى التقاء السين بالميم .. دعك من روعة حرف الـ Z المتلوى المصمم على التوائه ، وكيف تفتح الـ W ذراعها للسماء بينما تفضل الـ M أن تزحف على الأرض .. قضيت الكثير من الليالى

أطالع الكتب .. وبينها وجدت أسطورة أرض يغمرها ظلام شامل .. أرض تقع فى (جورجيا) .. فى غابات (أبخازيا) ..

من هذه الأرض المعظمة تسمع أصوات الناس .. أناس لم يرههم أحد من قبل ولا يعرف كيف يبدون .. يقال إنهم أحفاد ملك الفرس (سأبور) الذى سجن أتباعه للأبد فى هذه الأرض .. لقد ذهب إلى هذه البلاد كى يضطهد المسيحيين فدعوا الله كى ينتقم منه .. هكذا وجد أنه وأتباعه سجناء فى ظلمة لا يمكن اختراقها ..

ثم يصل الإسكندر الأكبر ويرغب فى اختراق هذه الظلمات أثناء بحثه عن ينبوع الخلود .. لكنه يعجز عن اختراقها بينما ينجح خادمه (أندرياس) فى اجتياز الظلمات ، ويشرب من نبع الخلود ..

هكذا عرف القدماء أرض الظلمات ..

فى الأساطير الإغريقية مملكة الظلمات هى مملكة الموتى (هيدز) التى يحكمها (بلوتو) الرهيب ، وخادمه (شارون) .. عنى الموتى كى يبلغوا هذه المملكة أن يعبروا نهر (ستيكس) الذى يصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى ..

هكذا عرف القدماء أرض الظلمات ..

انتهى (سليم) من قصته التى حكاها فى الظلام
الدامس ..

فما أن فرغ حتى مددت يدي إلى القداحة وأشعلتها ..

شليك .. شليك !

على الفور عم النور المكان .. النور الذى صارت له قيمة
عظمى بعد هذه القصة .. برغم أنه ليس النور الذى ألبو إليه ..
إنه نور أصفر رقرق كثير الظلال ..

الآن أرى وجهه وأدرك أنه رجل وقور فى العقد الخامس من
العمر .. أشيب الشعر .. وجهه مفعم بالتجاعيد لكن جسده يتمتع
بقوة لا بأس بها .. لكن ما أثار قلقي هو شيء آخر لم أستطع
معرفة ما هو ..

قال لى باسمًا بزواية فمه :

- « لاحظ أن البصاصين فى كل مكان .. وحساسية عيون
البشر لا تصدق .. عيون جائعة إلى النور متعطشة له .. يمكن

لهذه العيون أن تشم هذا الضوء الخافت عبر خصائص النافذة
على بعد مائة متر ..

أطفأت القداحة بسرعة وقد تملكنى الرعب . من جديد يسيطر
الظلام على كل شيء وتراجع المعرفة اليقينية ، لتحل مكانها معرفة
تخمينية تعتمد على الأصوات .. لا ألقى فى أننى عرفت شيئاً عن أى
شخص ما لم أر عينيه ..

سألته فى الظلام الذى جعل تنفسي عسيراً :

- « هل حقاً تعتقد أن تلك النبوءة التى تحدثت عن غريبين
متشابهين حقيقية ؟ »

قال فى الظلام الخاص به :

- « لا أعرف .. لم أعد تصديق النبوءات قط .. لكنى أؤمن
بالقدر .. والقدر قد سافكنا لهذا العالم لغرض ما .. لا أعرف من أين
جئنا لكنى أشعر بأنكم لا تنتمين هنا.. »

- « لكننا مجرد طفلين مذعورين لا نعرف أى شيء .. لا نعرف
إلى أين نذهب ولا ماذا نفعل .. »

- « كلنا ذات الشخص .. »

ثم قال في هدوء :

- « منذ هذه اللحظة أنتما ضيفان عندي .. لا حاجة للإقامة في الفنادق ولا تحسس الطرقات ولا غش الأوراق المالية .. أنا مسئول عنكما .. لكنى أقترح أن .. »

وبدا في صوته بعض الحرج :

- « تبدلا هذه الثياب التي أفسدت جو داري .. »

- « ليست ثيابنا .. لقد حصلنا عليها من بيع صحف .. »

- « أعرف .. لقد كنت أراقبكما .. »

هتفت (سلمى) في جزع :

- « تراقبنا ونحن نبدلها ؟ لقد حسبت أن .. »

لم يعلق .. وقد كنا نحسب أنه لا أحد يرانا ..

فقط قال بلهجة عملية :

- « الاستحمام ثم تبديل الثياب .. بعد هذا نعرف ما ينبغي

عمله .. »

وتتابع في قوة .. وقال :

- « لقد توغل الليل .. »

- « هل ما زلت تستعمل لفظة ليل ؟ »

- « لم أكف عن استعمال لفظة (ليل) قط .. ما أحلم به هو

أن أعود لاستعمال لفظة (نهار) .. »

قالت (سلمى) بعد قليل :

- « لاحظنا عندما توهج النور أنك تبتم بزواية فمك اليسرى ..

هل أنت مصاب بقرحة معدية ؟ »

ساد الصمت وبدا أنه يفكر فيما إذا كنا نمزح أو نسخر منه ،

ثم قال :

- « هل هناك علاقة طبية بين العرضين ؟ »

- « وتحب الققط الصغيرة وقراءة الصحف في الحمام .. عندما

كانت القراءة ممكنة طبعاً ؟ »

- « نعم .. لكنى لا أفهم ما الذي .. »

قلت أنا :

— « الأمر واضح .. (سليم) هو أقرب اسم لـ (سالم) و(سلمى) .. إن شرح الموضوع يطول لكنى دعنى أؤكد لك أننا أقرب إليك مما تتصور .. سوف نتفاهم جداً ! »

2- فلنعد!

كنت فى الحمام عندما سمعت الصرخة الأثوية بالخارج ..

لم تكن صرخة (سلمى) لكنى على الأقل أعرف أنها صرخة أنثى تذبج أو تنتزع عيناها .. تحسست فى الظلام حتى وجدت من الثياب ما يستر عورتى .. سقط باقى الثياب على الأرض فغرق فى البلل .. أطلقت سبة .. وهنا انزلت فى المغطس وأنقذت رأسى بمعجزة من أن يتهشم .. كانت أمى تقول إن الشياطين تحل بمن يجروا على الاستحمام فى الظلام .. عامة كانت تعتبر الحمام بقعة مخصصة للاستحواذ لا للنظافة .. ترى ماذا تقول عن كوكب كامل يضطر أفراده إلى الاستحمام فى الظلام ؟ هذه هى (الدهولة) حقاً واغفر لى هذا التعبير ، فلاشئ يعبر عن (الدهولة) إلا لفظ (دهولة) ..

هرعت إلى الخارج أتحمس طريقى فاصطدمت بشخص اعتقد أنه (سليم) .. وسمعت صوته يقول :

— « لا تقلق .. لكن .. أليست القداحة معك ؟ »

مددت يدى وأشعلت القداحة للحظة ..

على الأرض كانت سيدة فى عقدها الخامس قد شاب شعرها وانتفش ، وقد أراحت (سلمى) رأسها على فخذها .. وكانت تأتى بحركات تذكر بمرضى الصرع والزبد يخرج من شدقيها ، وقد مزقت بأظفارها منبت عنقها .. كأنها فى حالة هستيرية متقدمة .. تتنفس بسرعة وعمق منذرة بتحويل دمها إلى محلول قلوى ..

فما إن رأته النور حتى بدت على وجهها ضحكة بلهاء كأنها طفل يرى الشيكولاته للمرة الأولى فى حياته ..

قال (سليم) :

« اهدنى يا عزيزتى .. اهدنى يا فاتن .. كل شىء على ما يرام .. »

همست فى انبهار بصوت كأنه الفحيح :

« ضوء ! »

« نعم .. أنت بخير .. والآن سيسود الظلام من جديد .. »

بدأت تهدأ قليلاً وفهمت من تنفسها أنها نامت ..

قال لى فى الظلام :

« فاتن .. زوجتى .. أولئك الذين عرفوا النور فى شبابهم يصابون بنوبات جنون كهذه من حين لآخر لأنهم يشعرون بأن الظلام يجثم على أنفاسهم ويخنقهم .. إنهم لا يصدقون .. أما من ولدوا بعد الظلام فلا يمرون بأعراض كهذه .. »

قلت :

« هذا طبيعى .. قارن بين آلام السيدة التى فقدت طفلها والسيدة التى لم تنجب قط .. الثانية لم تملك قط ما تخسره .. »

وهكذا هدأت الأمور قليلاً .. أفهم تمامًا ما تشعر به هذه البائسة .. لولا القداحة فى جيبي لجننت منذ زمن ..

لا أعرف إن كان بوسعى أن أثق بـ (سليم) أم لا ، لكنى أرجح أنه فعلاً نسختنا الجينية هنا .. دعك من أن ما سكبته عندي من أسرار كفيل بأن يفتك به .. هو لن يجازف إلى هذا الحد .. لو وقعت فى يد الشرطة لكانت هذه نهايته ..

فى ثلاثة الأيام التالية عرفت الكثير عن هذا العالم ..
الآن أفهم التفاصيل كلها .. كيف يأكلون ويشربون ..
اعتمادهم التام على أجهزة المذياع التى تعمل بخلايا
بيولوجية ..

فهمت أن كل الحكومات تؤدى عملها كما كانت ، لكنها ملزمة
بالولاء للقومندان الذى يعتبر القائد الأعظم .. إن ما يملكه من
صواريخ نووية يجعل الطاعة واجبة له خاصة أنه يرى وهم
لا يرون .. أجهزة الإبصار التى يملكها رجال الشرطة مرتبطة
بإشارة إلكترونية يومية تجعلها تؤدى عملها .. هذا يجعله
مسيطرًا عليهم ويمكنه أن يعيدهم لحالة العسى إذا شعر بأى تمرد ..
مهمة الشرطة - بالإضافة لعملها التقليدى - هو ضبط جريمة
التعامل مع النار أو النور ، وتضاف للحكومات مهمة تحصيل
ضرائب عالية تسدد إلى القومندان .. أعتقد أنه يمتص جزءًا من
ثروات كل بلدان العالم ..

يظل التحليق محرماً قرب مقره .. على كل حال انتهى الطيران
من هذا العالم تمامًا .. عالم بلا طاقة .. عالم لا يبصر .. لا يمكن
أن تكون له إرادة مستقلة ..

يبدو الوضع يائسًا .. لكن - كأيّة ثورة - كانت الجذوة باقية
تحت الرماد تنتظر لحظة النهوض .. لا أعرف كيف ولا متى
لكنها قادمة ..

وقالت لى (سلمى) :

- « أعتقد أننا لن نقدم شيئًا هنا .. لقد حان الوقت
كى نرحل .. »

- « أنت عبقرية .. قلت لك إننى عرفت فيما مضى فتاة
تشبهنى كانت تصمم على البقاء حتى اللحظة الأخيرة .. »

- « لا أعتقد أننا سنفيد هؤلاء القوم .. إننى مستعدة لمواجهة
كل شيء بشرط أن أراه .. هذا الظلام قد أرهقتى وعذبنى
بحق .. »

ثم بعد تفكير قالت :

- « لكن لا تصراح (سلمى) بنيتنا .. إن عنده أملًا فى أن ننفذ
عالمه .. تلك النبوءة اللعينة .. لو أخبرناه بفرصتنا فى الرحيل
لنبدل كل جهد ممكن كى يمنعنا .. »

هكذا عندما سمعت صوت (سليم) فى الظلام .. وكان يكلم
ابنه ، قلت بصوت عال :

- « (سليم) .. كان معنا جهاز طبي مهم عندما جننا هنا ..
لقد أخذناه منا ضابط فى قسم شرطة (....) .. ونحن راغبان فى
استرداده .. »

فكر حيناً ثم قال :

- « هم م .. هل حقاً ترغبان فى استرداده ؟ هذا غريب .. هل
تعرفان اسم الضابط ؟ »

- « لا .. ولكنه رئيس المباحث هناك و .. »

فجأة سمعت ذلك الصوت الخشن بصيح :

- « من أنتما ؟؟؟ (نصار) ! (نصار) !! »

ثم سمعت صوت رجل يتكلم بلهجة ريفية قليلاً :

- « أوامرك يا (محسن) باشا .. »

- « من هذان ؟ وكيف مرا ؟ ألم تسمع صوت الخطوات ؟ »
بدا لى الأمر مألوفاً .. لكن هذا الظلام الدامس ..

قلت بصوت عال :

- « اسمه (محسن) بك أو باشا .. »

- « هذا يسهل الأمور .. يمكن أن آخذكما هناك حيث
تحاولان إقناعه .. أنتما تعرفان مواصفات الجهاز طبعا .. »
قالت (سلمى) :

- « المشكلة هي أننا نخشى أن تكون أوصافنا عند الشرطة
بعدما ارتكبنا جريمة النار .. »
ضحك كثيراً ، وقال :

- « أوصاف ؟ أنت متفائلة حقاً .. الشرطة لا تعرف سوى أنكما
اشنان .. لا أعتقد أن هذا كاف لاعتقالكما .. غداً آخذكما إلى
هناك .. لكن تذكر ألا تأخذوا القداحة معكما .. معنى هذا أن تموتا
داخل القسم ذاته .. »

3- الجهاز ..

على باب قسم الشرطة وسط الذين يدفعوننا فى كل اتجاه قال
(سليم) :

- « سوف أبقى هنا .. كونا لبقين سرعى البديهة .. »

مضينا نتحسس طريقنا ونسأل كل من نصطدم به .. مكفوفان
يسألان مجموعة من المكفوفين .. رحنا نشق الزحام نحو
الغرفة التى بدأت منها المغامرة .. بدأت منها كل مغامرة فى
الواقع ..

فجأة همست (سلمى) :

- « كلاب ! »

تصلبت وأصغيت .. بالفعل هناك كلاب قريبة .. كلاب تنبح
متحفزة منذرة بالويل .. وشعرت بالتوتر يزحف على مؤخرة
عنى .. ماذا لو كانت هذه بعينها هى الكلاب التى ..؟ ماذا لو كانت
لم تنس رائحتنا بعد ؟ إنها تنبح فى غضب .. فلماذا تنبح فى
غضب ؟ وتوقعت أن أجد تلك الأنياب تطبق على ساقى أو عنقى
فى أية لحظة ..

تظاهرننا بأننا لا نخشى شيئاً .. كلاب تطبق على عنقك ؟ هذه
تفاهات !

وعلى الباب شعرت بمن يضع كفه فى طريقى ليمنعنى من
الاستمرار ..

قلت هامساً :

- « (محسن) بك .. نريد لقاءه .. »

جاء صوت (نصار) الحارس الواقف على الباب الذى صرت
أحفظه وهو يتساعل :

- « والسبب ؟ »

- « إنه احتفظ بجهاز طبي يخصنا .. كان هذا منذ أسبوع
تقريباً .. »

- « انتظر لحظة .. »

ماذا أنتظره بالضبط ؟ وفجأة شعرت بقطعة صلصال باردة
تلتصق بأذنى ..

لقد صار الأمر خطراً .. إننى أتربك بصماتى فى كل صوب ،
ولو كانت لديهم بصمات الفندق فإن أمرنا قد انتهى فعلاً ..

لم يكن عندى سوى حل واحد .. (سلمى) تعصص شعرها فلن
توجد خصلات مزعجة .. مددت يدي متظاهراً بالخرق لأتربع
قطعة الصلصال من يد (نصار) ، ومن ثم حولتها إلى عجين ..

تراجعت فى الظلام خطوة لأجعل (سلمى) تقف فى موضعى
بالضبط .. بينما صاح (نصار) بلهجته الريفية المقتظة :

- « هل أنت غيبى ؟ لا تمد يدك على القالب ! »

- « معذرة .. أنت فاجأتنى .. »

ومرت ثانية أخرى .. لا بد أنه ثبت قالباً جديداً على أنن
(سلمى) .. ثم سمعت صوته يصيح :

- « انتظرا هنا .. »

ما أن توارى الصوت حتى سمعت (سلمى) تهتف فى
غيظ :

- « ما هذا الشيء المثير للاشمزاز ؟ »

- « صلصال طبعاً .. وكان هذا هو الحل الوحيد .. أن أستبدل
ببصمات أننى بصمات أننك .. ليست لديهم هذه الأخيرة .. لن
أجازف بأن يخرج من يقول إنهم عرفوا سرنا .. من حسن الحظ
أنك لم تملنى الدنيا صراحاً .. »

جاء صوت (نصار) الخشن يقول :

- « ادخلا .. »

نحن الآن فى غرفة رئيس المباحث .. لا أرى شيئاً لكنها
باردة جداً ككل شيء هنا .. أسمع صوته يقول فى غلظة :

- « ماذا تريدان ؟ »

عدت أحكى القصة الملفقة عن جهاز تنظيم الضربات الذى
تعتمد عليه حياتى كلها .. وطلبت منه أن يعيده لى .. يبدو أننى
حكيت هذه القصة ألفى مرة حتى اليوم .. سمعت صوت مكتبه
يفتح وسمعته يقول :

- « لم أعرف ما هو .. لا أحد يعرف .. لكن ما دمت بحاجة

له سأعيده لك .. »

هذه الحيلة لا تفشل على الأرجح .. لا أحد يرغب فى أن يتسبب فى موتى ما دام الجهاز غير مفيد وغير ضار .. لا أحد يرغب فى مجازفة كهذه ..

- « بالمناسبة .. لاحظت أن قلب أنك صغير كأذن الفتيات .. هل أنت صغير الحجم ؟ »

هكذا فهمت أنه لا يلبس نظارات رؤية ليلية .. غريب أن يمارس ضابط المباحث عمله وهو عاجز عن تفحص المتهمين فى شك أو إلقاء نظرات نارية على الناس ..

قلت فى تواضع مرح :

- « صغر الحجم ورائى فى أسرتنا .. »

وشعرت بالجهاز الثمين فى يدى .. تذكرة العودة التى ضاعت منا واستردناها .. تذكرة العودة إلى عوالم مضيئة فيها نور وكتب وشمس ..

صحت بلسان متهدج وأنا أقاوم الرقص طربياً :

- « شكراً .. شكراً على تفهمك .. »

فى ضيق (أمنى) قال :

- « لا أريد أن أسمعكما هنا ثانية .. »

هذا هو البديل العصرى لعبارة (لا أريد أن أراكما هنا ثانية) ..

وتحسسنا طريقنا إلى الخارج ، واعتصرت يدها وهمست :

- « ما رأيك ؟ هنا والآن ؟ »

قالت هامسة :

- « لا بد لى من الرؤية .. لا أحفظ أماكن الأزرار .. فلننتظر حتى نعود إلى الدار .. »

وعلى الباب مددت يدى وصحت :

- « (سليم) ! »

فجاءنى صوته :

- « أنا هنا .. سبع أم .. ؟ »

- « سبع .. لكنه سبع بحاجة إلى قيس ضوء خفيف .. »

4- القلعة ..

انتهى الحفل فى ساعة مبكرة من صباح الاثنين ..

فرغت الراقصات الإيطاليات من أداء فقرتهن فهرعن وراء الكواليس .. على حين انتشر الخدم الهنود هنا وهناك يقودون الضيوف إلى حجراتهم ..

كانت (باولا مارياتشى) الراقصة الإيطالية ذات العشرين ربيعاً تتوق إلى تدخين لفافة تبغ لأول مرة فى حياتها ؛ لذا اتجهت إلى الشرفة المفتوحة ووقفت ترمق العالم أمامها ..

كان الفجر يقترب كما قلنا لكنها لم تستطع رؤية نذره الأولى ، لأن الإضاءة الشمسية الصناعية فى الشرفة تجعل هذا مستحيلاً .. قيل لها إن هذه هى الطريقة الوحيدة كى لا تتجمد لأنها فى أعلى بقعة من العالم .. كل القاعات تتمتع بتدفئة ممتازة ، بينما الشرفات وساحات الرياضة تضاء بشمس صناعية .. هذه القلعة تستهلك وقوداً كان يكفى دولة صغيرة منذ بضعة أعوام ..

قالوا لها إن التنفس صعب فى الشرفة وإن عليها أن تضع فتاع الأكسجين .. لكنها لا تشعر بأن هناك مشكلة .. من العسير نوعاً أن تدخن بقناع أكسجين على وجهها ..

أشعلت لفافة التبغ بالقداحة التى أعطاهها إياها الجنرال (كريلوف) فى بداية السهرة .. شعور مذهل هو أن تستطيع أن تصنع النار بأداة صغيرة كهذه .. كانت (باولا) فى بلادها مدمنة تبغ ، لكنها تمضغه كما يفعل الجميع ..

سمعت صوت أحدهم قادماً ، ولم تحتج إلى أن تلتفت لترى من .. منذ بداية الأمسية لم يتركها الجنرال (كريلوف) لحظة .. هذه هى مأساة المرأة الجميلة .. إنها لا تستطيع أن تظل وحدها لحظة واحدة ..

الجنرال (كريلوف) لا يحمل سمات العسكريين .. إنه قصير القامة أصلح .. لابد أنه يعانى مركب الرجل صغير الحجم ، لأنه يصنع خشونة معينة فى صوته ويحاول أن يبدو عدوانياً مقتحماً ..

فى يديه كأسان من الفودكا ، ومن الواضح أنه يريد أن تشرب معه ..

- « هل تستمتعين بمطلع الفجر يا عزيزتى ؟ »

كان يتكلم الإنجليزية الرديئة وهى اللغة الرسمية للكلام فى برج (بابل) هذا .. هزت رأسها أن نعم وهى تتمنى لو أنه يتركها قليلاً ..

ناولها كأساً ثم رفع كأسه بحركة تمثيلية ، وقال :

- « نخب أجمل عينين زارتا قلعة (القومندان) .. »

وجرع كأسه مرة واحدة ثم طوحها وراء كتفه كعادة الروس .. لم تسمع من قبل من يقول إن عينيها جميلتان .. السبب هو أن أحداً لم يرهما من قبل ..

كانت هى ترمى المنظر من الشرفة .. شعور غريب بحق أن تجد نفسك فوق الغيوم .. الغيوم تبدو لها كأنها أرض يمكن أن تترجل وتمشى فوقها .. أرض فيها جبال وهضاب ووديان ..

أما ما يدير الرأس بحق فهو أنها فوق مستوى الظلام ذاته ..

قال الجنرال :

- « نعم .. أعرف ما تفكرين فيه .. نحن هنا فوق السحابة السوداء التى يغرق فيها البشر .. نحن فوق مستوى الظلام

والليل الكثيف .. لا يفصلنا شئ عن ضوء الشمس .. لكننا

ندفع ثمننا غالباً هو قلة الأكسجين والبرد القارس .. »

دوى هدير محرك ..

واستطاعت أن ترى الطائرة التى جاءت بها والفرقة تطير فوق الجبال مبتعدة ..

سألته :

- « كيف يرى طريقه للهبوط ؟ »

- « تقصدين تحت مستوى السحابة السوداء ؟ بالطبع يعتمد على

أجهزة الرؤية فى الظلام .. يستعمل وقوداً بيولوجياً خاصاً لأن

البترول لم تعد له قيمة .. »

كانت ترمش بعينيها غير مصدقة ..

للمرة الأولى منذ عشرين عاماً تعرف معنى البصر .. تستعمل

هذين العضوين الموجودين تحت جبهتها .. وقد جعلها هذا تجن

تماماً .. راحت ترقص كالمخابيل أربع ساعات .. وكانت الراقصات

الثلاثى جنن هنا من قبل يتبادلن النظرات الضاحكة .. هذه

أعراض الإبصار التى مرت بهن جميعاً ..

لقد كانت الضربة قوية .. فجأة استعملت عينيها وصارت تعرف معنى كلمة (نور) .. فجأة هي فوق قمة العالم .. فجأة هي فوق الغمامة ذاتها .. فوق الظلام .. فجأة هي في قصر القومندان الذي تسمع عنه منذ جاءت إلى العالم ..

كل هذا أفقدها صوابها فعلاً، فصارت على استعداد لعمل أى شيء كى يُسمح لها بأن تبقى هنا ..

سألت الجنرال دون أن تنظر له :

- « هل رأيت القومندان من قبل ؟ »

قال فى ارتباك :

- « مرتين لا أكثر .. ليس مولغاً بالظهور .. »

- « كيف يبدو ؟ »

- « إنه راهب من رهبان التبت .. يبدو مثل الدلاى لاما .. »

طبعاً لم تكن قد رأيت صورة الدلاى لاما .. لم تر أية صورة لأى شخص فى حياتها ..

- « لكنكم هنا منذ زمن .. »

- « نحن قادته .. ونحن من يدير كل شيء ونبلغه بالتفاصيل .. »

فجأة حلقت طائرة أخرى فوق الرؤوس .. وسرعان ما توارت وسط الغيوم السود ..

سألته فى دهشة :

- « ما سر هذا النشاط ؟ »

- « لا يوجد سبب معين .. فقط هناك نبوءة .. تعرفين أن هؤلاء القادة جميعاً يؤمنون بكلام المتنبئين منذ عهد (هتلر) حتى اليوم .. النبوءة التى وصل لها القومندان هى .. »

وفكر قليلاً ثم أردف :

- « لا أدرى لماذا أحكى لك كل هذا . لكن لا ضرر منه على كل حال فجميع النبوءات هراء .. النبوءة تتحدث عن شخصين متشابهين تماماً أحدهما ذكر والآخر أنثى ، وقد جاءا من عالم آخر .. هذان سوف يعيدان معنى النور لهذا الكوكب التمس .. عامة يشعر القومندان بقلق من هذه النبوءة ، ودوريات الأمن

نشطة أكثر من أى وقت آخر . فى الحقيقة لا أحب أن أرى رجلاً عظيماً مثل القومندان بضبع وقته فى هذا السخف .. »
ثم أشار إلى الأفق وهتف :

- « الآن ترين اللمسات الأولى للفجر .. الشمس تظهر فى الأفق الشرقى .. سوف يخيل لك أنها تتحرك .. الحقيقة أن الأرض هى التى تتحرك .. سوف يحمر الأفق وترين مشهداً لن تنسيه .. »

يتكلم بفخر كأنه هو المسئول عن هذا المشهد الجليل ..

كان قلبها يخفق وصدراها يعنو ويهبط ..

قال لها الجنرال :

- « هناك كلمة تسمعيها لأول مرة .. نقولها فى ظروف كهذه (صباح الخير) .. »

نظرت له فى عدم فهم فعاد يكرر الكلمة :

- « صباح الخير .. صباح جميل .. جود مورننج .. بونجور .. جوتن مورجن .. بونجورنو بلغتك .. داو بروى أوترا بلغسى .. هذا هو الصباح لذا تتمنين لأصدقائك أن يكون جميلاً .. »

أول صباح تراه فى حياتها ..

هذه لحظات أسطورية .. سوف تموت وهى لا تحمل من كنوز إلا هذه الذكريات ..

تصوروا أن المسنين يزعمون أن هذا المشهد كان يوماً ! هى التى لا تفهم أصلاً معنى كلمة (مشهد) .. يقولون إنه كان مجاناً .. هبة مجانية من الخالق الأعظم .. كيف ؟ لو أن المرء ذبح نفسه الآن فلن يكون ثمناً كافياً لمشهد كهذا ..

اتفجرت فى البكاء ..

قال الجنرال فى وقار :

- « نعم .. نعم .. أعرف ما تشعرين به .. هذا البهاء لنا وحدنا .. كان من حق الجميع فصار من حق الصفوة .. إننا سادة العالم بلا مبالغة .. ألا يدبر هذا رأسك ؟ »

كان فيل أزرق كبير يطير فى الهواء نحوها فتراجعت فى ذعر .. ورأته يدخل كأسها ليذوب ..

هتفت غير مصدقة :

- « الفيل الأزرق .. لقد .. »

قال الجنرال :

- « آه .. هذه علامات نقص الأوكسجين وقد أثرت على الدماغ ..
أرى أنه من الأفضل أن ندخل الآن .. إن تركيز الأوكسجين
بالداخل عال .. »

قررت بالفعل أن تدخل قبل أن ينزلق لساتها بفعل هلاوس
نقص الأوكسجين وتتكلم أكثر من اللازم ..

لو عرف الجنرال أنها من الضوبيين وأنها تتجسس على
القلعة ، فلسوف يلوم نفسه ألف مرة على كل هذه الشرثرة
الحمقاء .. كل الرجال يتحولون إلى بلهاء أمام فتاة جميلة ..
لكنهم عندما يفيقون يتحولون إلى وحوش ..

وهي لا ترغب في أن ترى الجنرال يتحول من أبله إلى
وحش ..

* * *

5- نشوة النيران ..

سأنتى (سليم) وهو يقودنى إلى داخل الشقة :

- « لماذا تحتاج إلى نور ؟ »

قلت بلهجة عارضة :

- « لا يمكن تشغيل الجهاز فى الظلام .. هذه عملية
دقيقة .. »

- « سأحضر لك القداحة حالاً .. »

مددت يدى أمسك بيد (سليم) .. سوف تكون العوبة قاسية
مع (سليم) عندما نتلاشى أمام عينه . هو الذى علق علينا
أمالاً كبيرى ، لكن لا يوجد حل آخر .. هذا العالم لا يغرى
إلا بالهرب ..

بعد قليل سمعت صوته يصيح :

- « لا أجدها .. هل أخذتها ؟ »

- « بالطبع لا .. »

« إذن هي سرقت ! »

كنا على وشك تبادل الاتهامات واللوم عندما سمعنا صوت الصراخ من الخارج ..

تحسنا طريقنا إلى مصدر الضوضاء ، وعندما شمعنا رائحة الهواء الطلق لم يكن هناك من داع للمزيد من تحسس الطريق .. لقد كان هناك ضوء فعلاً .. ضوء خافت واهن مترافق لكنه كاف كي ترى.

وشهق (سليم) في رعب :

« فاتن ! ! »

كانت تقف هناك وحولها زحام من الناس المذعورين الذين يحجبون أعينهم بأيديهم ، بينما هي في مركز الدائرة كأنها حاو يقدم فقرة مثيرة .. كانت القداحة في يدها لكنها كانت قد أشعلت شمعة كبيرة عملاقة .. شمعة تمسكها في ذات اليد التي تمسك بها القداحة ، بينما اليد الأخرى تمتد بصفحات من كتاب تشعلها من اللهب ثم تلقئها أرضاً ..

يتراجعون في رعب غير مصدقين ..

لو كانت النار جريمة فهم لم يروا سفاخاً بهذه اللامبالاة ، ولو كانت النار كفرة فهم لم يروا فاسقاً بهذه الجرأة ..

بالطبع كان النور الذي تصنعه واهناً صغيراً لكنه الضوء الوحيد لذا بدا متضخماً .. وسل عن هذا أى مخرج مسرح عرائس .. إن طاقة النور التي لا تتجاوز حجم صفحة الجريدة تتحول في الظلام الدامس إلى مسرح كامل ..

تشعل النار في الأوراق وتطوح بها في كل صوب في الشارع وهي تصيح :

« هذا هو النور ! تلك هي النار ! هل ترون يا حمقى ؟ هذا هو ما حرمتكم منه ! استمتعوا بها ! انظروا لها ! دعوها تحرقكم وتحرق غباكم وتخبطكم وجبنكم ! هل ترون كيف تبتدون ؟ هل ترون شارعكم ومدينتكم ؟ كل ما عشم تتحسسونه ولا تعرفون عنه إلا ما تتيحه حاسة اللمس .. واللمس خادع يا أغبياء ! هلموا ! »

صرخ (سليم) وهو يغطي عينه :

- « فاتن) يا بلهاء ! كفى عن هذا ! »

مددت يدي أمنعه من اللحاق بها وهتفت :

- « لا تكن غيبياً ! »

من جديد تشعل المزيد من الأوراق وتطوح بها ..

- « هلموا يا حمقى .. متعوا أعينكم قبل أن تموتوا ! »

كان على أن أعرف هذا .. ليس من الحكمة أن تترك القداحة مع امرأة أصيبت بحالة هستيريا بسبب الظلام .. لقد رأيت القداحة وتذكرت نشوة النور .. بعد هذا تركناها معها .. إن لم يكن هذا هو الغباء بعينه ، فما اسمه ؟

ومن بعيد سمعت صوت سريئة سيارات الشرطة ..

ابتعدى يا حمقاء !

كان منظرها مشيراً للشفقة بثياب البيت الرثة وشعرها المنكوش الذى لم تكن به منذ عقود .. وبدا واضحاً أنها مأساة إغريقية توشك أن تحدث ..

صحت فى (سليم) :

- « فلنبتعد ! »

لكن الكلام على هين .. إنها زوجته .. حبيبته منذ أيام الدراسة برغم أنني أشك نوعاً فى صدق هذه الحقيقة .. أو على الأقل أشك فى أنه يحتفظ لها بالحب ذاته وهو يراها بهذا المنظر ..

سمعنا صوت الكلاب .. وقبل أن نفهم ما يحدث كان كتابان عملاقان يثبان فى الهواء وسط ضوء اللهب المتراقص ..

صرخ الناس وتراجعوا .. الغريب أننا فى الشارع لكن الإضاءة توحى بأننا فى كهف .. لا تفهم ما يحدث بالضبط .. الكثير جداً من الظلال ..

فقط أدركت أن هناك كلبين يجثمان عليها وأنها تقاوم وتصرخ ..

ثم ظهر رجال الشرطة بنظاراتهم التى تشعر بك أنك ترى نملة عملاقة .. لن يقتلوا .. لابد من الاستجواب أولاً .. معها قداحة فمن أين جاءت بها ؟ لن نؤذيك يا سيدتى .. فقط قولى لنا من زوجك ؟ كيف نعتقل الغربيين المتشابهين اللذين ينزلان ضيفين

عندك ؟ إنهما الغريبان اللذان أضاعا القداحة في مدخل الغندق ..
أليس كذلك ؟ من أين جاءا ؟ ما هذه النار القوية ؟

كنت أجرُ (سليم) مبتعدين عن هذا المشهد .. لقد تحول إلى
طفل مذعور كبير لا يعرف ما يجب عمله .. اعتقال زوجته يعنى
اعتقال ابنه .. هذا رجل فقد أسرته في بضع ثوان والسبب
قداحة ..

كان يردد بلا انقطاع :

- « تركتى .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها ..
يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت معها .. يجب أن أموت
معه .. يجب أن أموت معها .. »

قلت له وأنا أجره في الضوء الخافت للقدم من المحرقة :

- « اسمع .. لم يعد لك مكان في هذا العالم .. يجب أن تثق
بى .. سوف ترحل معنا .. »

- « إلى أين ؟ »

- « لا أعرف .. لكن إلى مكان ليس هنا .. »

واعترضت ساعد (سلمى) الأيسر وقلت لها :

- « يجب أن تحاولى .. استعملى هذا الضوء فلا يمكن الانتظار
إلى أن تشرق الشمس .. »

وباليد الأخرى اعترضت كتف الزوج المنكوب ..

قالت وهى تقرب عينها من الجهاز :

- « سأحاول .. (143- ج - 1) .. ما رأيك ؟ »

قلت فى غيظ بسبب غياب السؤال :

- « يبدو محبباً .. إن العوالم التى تبدأ بـ 143 تكون مبهجة ..
هذه قاعدة .. »

ضغطت الأزرار وهى تلهث ..

سوف يندھش (سليم) من الرحلة القادمة ، لكن فى الوقت
متسغاً لفهم كل شيء ..

- « هيا ! »

- « لكنى فعلت ذلك ! »

وعادت تضغط على زر الإدخال مراراً .. لا شيء ..

قلبت الجهاز وتفحصت البطاريات .. إنها فى مكانها ..

6- الضوئيون ..

فى الظلام مد (فينوريو) يده يتحسس الشكل المصنوع من الصلصال ..

هناك مرتفع هنا ومنخفض هناك .. هناك فجوة .. هناك ممر ضيق بين جبلين .. ثم توقفت أمامه عند مجموعة من البروزات التى صنعت من أعواد ثقاب متلاصقة ، وقال :

- « من أين جئت بالثقاب ؟ »

- « أحب الاحتفاظ بهذه الطرائف .. »

عاد يواصل التحسس ثم تساءل :

- « إلام يرمز هذا ؟ »

- « أعتقد أنه يرمز للصورايخ عابرة القارات .. »

توقفت يده عند برج مرتفع .. وعاد يسأل :

- « هذا .. ما هو ؟ »

مدت (باولا) يدها حيث أشار ، وراحت تتحسس ثم قالت :

قال (سليم) :

- « هل تستعملان هذه الأشياء ؟ ألا تعرفان أنه لم يعد لها قيمة فى عالمنا ؟ ككل شىء تلاشت الطاقة منه ، فرغت كل البطاريات خلال أيام .. أعتقد أن جهازكما هذا قضى فترة كافية ليفرغ كأي جهاز آخر ! »

- « لا أعرف .. لكنه شديد الأهمية .. هناك حراسة مكثفة من حوله .. »

قال (فيتوريو) وهو يمضغ بعض التبغ كعادته :

- « على كل حال أنت أجدت استعمال عينيك يا (باولا) .. نحن الآن نفهم كل مخارج ومدخل هذه القلعة .. إن الضوئيين سوف يسعدون بهذه الأنباء .. »

قالت في رضا :

- « الخبر الأهم هو موضوع فرقة العمال التي سيتم نقلها إلى هناك .. إنهم بحاجة إلى أعداد أكبر من العمال .. وهؤلاء العمال سيكونون من عدة بلدان .. »

- « وهذا يعني أننا سنكون هناك .. »

لم تكن (باولا) قد رأت (فيتوريو) من قبل .. فهي لا تملك تلك النظارة السحرية، لكنها تعتقد أنه وسيم فارغ القائمة .. لا تعرف بالضبط معنى كلمة (وسيم) وتعرف معنى (فارغ) بالتقريب .. لكن كل شيء قد تغير في هذا العالم على كل حال، بحيث صارت للأذن قدرة هائلة على التمييز وتكوين

الشخصيات .. (الأذن تعشق قبل العين أحياناً) .. هذه الشطرة من الشعر العربي لم تسمعها لكنها تعبر عما في ذهنها يقيناً ..

بالطبع (الأذن تخدع قبل العين أحياناً) أمر وارد .. هناك مكفوفون كثيرون تعلقوا بصوت فتاة، بينما هي لا تتمتع بأى جمال .. لكن العبرة هي عين الروح وما تراه ..

لقد كان (فيتوريو) يعرف كل شيء ويفعل كل شيء .. ورث هذا كله عن أبيه الذي كان معارضاً قوياً وقتله الفاشيون .. وعندما ساد الظلام ظل (فيتوريو) مقاتلاً عنيداً .. لا تعرف كل ما يعرفه لكنها تعرف أنه همزة الوصل بين الضوئيين في أكثر من مكان .. برغم أن العالم صار شاسعاً مترامى الأطراف كما كان منذ ألف عام، فإن هؤلاء القوم وجدوا أساليب لتبادل المعلومات .. هناك الطريق البرى وهناك أجهزة اللاسلكى الواهية التي تعمل ببطاريات بيولوجية، وهناك الحمام الزاجل .. سلالات الحمام الجديدة التي ولدت عمياء، لكنها تعلمت الاعتماد على حواسها .. فى عالم كهذا تجد المخلوقات طرقاً غريبة .. النحل كان يضل طريقه لأنه لا يستطيع رسم زاوية مع قرص الشمس كما كان يفعل للعودة إلى خليته .. ظهرت سلالات جديدة

تعتمد على حواسها .. وعلى كل حال صار جنى العسل عملاً محفوظاً بالمخاطرة فعلاً ..

لم يكونا وحدهما .. فمعهما شاب يدعى (ستافرو) وشاب يدعى (ريكاردو) وفتاة تدعى (سيمونيتا) .. الشابان يضعان النظارات الليلية طبعاً، فمن الوارد أن تكتشف أنك تتأمر في وجود عشرة رجال شرطة من حولك ..

لم يكن (فيتوريو) يثق بالإيطاليين كثيراً برغم أنه منهم .. كان يعتقد أنهم لا يتمتعون بالصلابة ولا يمكن الاعتماد عليهم .. (موسوليني) العجوز خذل (هتلر) مراراً حتى آمن هذا الأخير أن الإيطاليين شعب خال من إرادة الحرب أصلاً .. يبدو أن الرومان لم يتركوا شيئاً من دمهم في عروق الأحفاد .. لو تمت هذه العملية فلأبد من الاستعانة بشعب قوى الشكيمة .. وكان يثق بالألمان من بين شعوب أوروبا ..

قال (ستافرو) :

- « كل شيء يوحى لنا بقرب اللحظة .. هذه أكمل صورة مجسمة لقلعة الجبل .. الأخبار القادمة من الخارج تقول إن النوعين ظهرا .. المتشابهان اللذان قيل إنهما سيحرران عالمنا .. »

قال (فيتوريو) في غيظ :

- « دعنا ننس هذا الهراء .. كل شعب من الشعوب ينتظر قدوم مخلص ما .. كانت هناك قصص مصورة تدعى (ماتريكس) كنت أقرأها في صباى، وكانت تتحدث عن عالم ينتظر قدوم (المختار) ليحرره من الآلات الحاكمة .. أرى أننا ندخل ذات الدائرة الآن .. »

قال (ستافرو) بصوته الرفيع المميز :

- « يقال إنهما ظهرا في مصر .. لا أرى ما يمنع من الاتصال بهما .. »

قالت الفتاة :

- « حتى القومندان يؤمن بهذه القصة ، وقد وصل لها بطريقة منفصلة عنا .. هذا يعطيها بعض المصداقية .. »

قال (فيتوريو) :

- « لا أعرف كيف يمكن إدخال اثنين من مصر في قصة كهذه .. لكن لا مانع من محاولة الاتصال بهما .. هل تعرفون السبب ؟ السبب سيكولوجى قبل كل شيء .. إن كنت تؤمن بهذه الخرافة فلنتعرف أن المنقذين معنا نحن بالذات .. »

ثم هتف وهو يعيد تحسُّس المجسم :

- « هذا الجزء المبهم الذى يحرسونه بعناية .. أريد معرفة ما فيه .. كل نظام محكم له كعب أخيل (Achilles' heel) .. نقطة ضعف مخفية تؤدى لانهييار كل شيء .. فهل هذا هو (كعب أخيلهم) ؟ »

قالت (باولا) :

- « وكيف نعرف ؟ »

- « سنعرف عندما نعرف ! والآن ليتحسسن كل منكم هذا النموذج بعناية .. ليحفظه عن ظهر قلب .. بعد هذا سوف ندمره لأن وجوده معنا كاف لإعدامنا بلا محاكمة .. »

وغمغم كأنما هو يذكر نفسه :

- « اثنان فى مصر .. هم م م .. هذا مثير .. »

7- سنكون هناك ..

قال لى (سليم) :

- « أنت لم تكن صريخاً معى منذ البداية .. ولو سألت لأجبتك .. لا يمكن لهذا الجهاز أن يعمل إلا لو وصلت إلى قلعة القومندان .. »

قلت ضاحكاً فى هستيريا :

- « جميل .. جميل .. ولماذا لا أجربه على كوكب (أوراتوس) ؟ »

- « لا أعرف ما هو كوكب (أوراتوس) .. »

كلما نسيت نفسى تذكرت أتنى على كوكب آخر .. وأن هذا الأخ كائن فضائى غريب ! هم لا يعرفون كوكب (أوراتوس) فلا مانع أن يكون اسمه عندهم (عباس) أو شيئاً من هذا القبيل ..

قلت له :

« أردت القول إن هذا شيء مستحيل .. معنى هذا أننا فعلاً غير قادرين على مغادرة عالمكم .. »
قال في ضيق :

« لا أصدق حتى اللحظة موضوع العوالم الموازية هذا .. لكنى أعرف شيئاً واحداً هو أن كل مصادر الطاقة لا تعمل إلا في قلعة القومندان لأنها فوق مستوى الظلام .. هناك الشمس والنار والكهرباء وطاقة الوضع وطاقة الحركة والطاقة الذرية .. كل شيء .. كل طاقة سمعت عنها في كتب الفيزياء تعمل بكامل قواها .. »

قالت له (سلمى) في لهفة :

« وكيف نصل هناك ؟ »

صحت بها :

« هل جننت ؟ »

قالت ببرود :

« بالعكس .. الجنون هو أن تبقى هنا في الظلام بلا أمل .. من الأفضل أن نموت ونحن نحاول .. »
ثم سألته :

« هل تعتقد أن بوسعك مساعدتنا ؟ »

قال بعد فترة صمت قدرت أنه يفكر أثناءها :

« هذا يحتاج إلى الكثير من الاتصالات .. لكنى سأرى ما يجب عمله .. »

الحقيقة أنه كان في مأزق هو الآخر .. لقد صار عاجزاً عن العودة إلى داره .. الأجل هو أننا جميعاً اضطررنا لاستبدال ثيابنا بثياب متسخة قذرة لأن الكلاب بالقطع صارت تحفظ رائحتنا .. كنا نعيش في الشارع أو نزحف إلى أن نبلغ بيت أحد الضوئيين ممن يعرفهم لنمضى بعض الوقت هناك .. كل هذا من دون النظارات طبعا .. لقد ترك نظارته في بيته .. لا أخبار عن ابنه ولا زوجته ..

الحق إنها كانت حياة مرهقة ..

قال الأستاذ (شوقى) بصوت عال جهورى يميز مدرسى اللغة العربية :

- « ودار لها بالرقمتين كأنها

مراجيع وشم فى نواشر معصم .. »

ثم قال سائلاً :

- « هل تعرفون معنى (مراجيع وشم) ؟ »

ارتفع صوت رفيق لطالب يدعى (عمرو) .. هذا صوت (عمرو) ولا شك فى هذا .. يقول :

- « الشاعر يشبهه بقايا الدار بآثر الوشم فى معصم المرأة .. »

ارتفع صوت طالب آخر :

- « كيف يبدو يا أستاذ ؟ هل هو شبيه بالعروق ؟ »

كانت هذه هى المشكلة .. هؤلاء لم يروا وشمًا أصلاً .. من السخف أن تكلمهم عن شيء لم يروه .. أن تكلمهم عن بقايا الديار ومشية الأطباء والعيون اللواتى فى طرفها حور وهم لم

يروا النور قط .. لقد اتفق معهم على أن القدامى كانوا يتمتعون بشيء فريد هو أنهم يبصرون .. لم يكونوا يعتمدون على السمع لكن كانت عندهم حاسة فريدة من نوعها .. لم يفهم التلاميذ الأمر واعتبروه شبيهًا بمن يقول لك إن القبائل القديمة كانت تستعمل التخاطر الفكرى .. مجرد اتبهار مع مسحة حسد ثم ينسون الأمر تمامًا ..

لكن مشكلته كانت هينة نوعًا .. التعامل مع اللغة سمعيًا أمر سهل ، والدليل أن مكفوفين كثيرين نبعوا فى اللغة .. المشكلة الحقيقية كانت تواجه مدرسى الفيزياء والكيمياء والأحياء حيث البصر جزء لا يتجزأ من المعرفة ..

هكذا كانت العلوم تنقرض بسرعة جهنمية على هذا الكوكب منذ ساد الظلام ..

سمع الهديل فمشى نحو النافذة وهو يواصل الشرح :

- « فلما عرفت الدار قلت لربيعها

ألا عم صباحًا أيها الربيع واسلم .. »

قال أحد الصبية :

- « هناك حمامة على النافذة يا سيدى .. أعرف هذا

الصوت .. »

قال فى ضيق :

- « حتى لو كانت طائرة فلا دخل لك بهذا .. »

ومد يده يتحسس حتى استطاع أن يتلمس ريش الحمامة ..

استسلمت لأصابعه فى حنان فمد يده يبحث عن الطوق

حول ساقها وانتزع اللقافة .. كأنما شعرت الحمامة بامتئان

لتحررها من هذا الثقل فردت جناحيها وحلقت أو هذا

ما شعر به ..

كانت اللقافة من الورق المقوى وقد امتلأت بالثقوب .. ثقوب

تم رسمها بالإبرة وبرداءة .. فى هذا العالم لم يعد هناك علم

اسمه الخط ، وإنما أنت تقِيم رموز (برايل) .. هل هى منسقة

أم مبعثرة ..

تحسس الثقوب .. كانت الرسالة قصيرة لكنها واضحة :

- « التوعمان يجب أن يتواجدا فى المطار فى الثامنة صباح

الأربعاء .. طائرة تحمل العمالة إلى القلعة .. »

فرغ من تحسس الرسالة ثم مزقها إلى قطع صغيرة وهو

يوصل كلامه :

- « ستمت تكاليف الحياة ومن يعش

ثمتين عامًا لا أبالك بسأم .. »

كلم الأستاذ (شوقى) الدكتور (ميخائيل) فى صيدليته ..

كلم الدكتور (ميخائيل) المهندس (حلمى) فى مكتب

الإنشآت الخاص به .. كلم المهندس (حلمى) الحاج

(عبد السلام أبو يحيى) فى داره .. كلم هذا الأخير (شريف)

فى المطعم .. كلم (شريف) (سليم) وهو يتناول الغداء

عندهم ..

كلمنا (سليم) عندما اختلى بنا ..

هكذا اكتملت الدائرة ..

لقد عرفنا ما يجب أن نقوم به ..

غداً هو بداية الحل أو نهايته .

8- المتسللون ..

الظلام دامس فى الطائرة .. هذا يزيد من شعورك بالكابوس الجاثم على صدرك .. أن تكون فى الظلام على الأرض فهذا محتمل .. أن ترى الضوء وأنت فى السماء فهذا معقول .. لكن أن تجد نفسك فى الظلام على متن طائرة فهذا هو الكابوس بعينه .. لا ينقصك شيء كى تشعر بأنك ميت وأن هذا هو القبر ..

العمال الجالسون فى الظلام من جنسيات مختلفة .. منهم الصينى واليابانى والألمانى والمصرى والتنزاتى .. لهذا كان من حسن الحظ أن تسمع واحداً يتكلم بذات لغتك ..

الرحلة طويلة طويلة استغرقت عدة أيام لأن الطائرة هبطت فى أكثر من مطار .. لا يعلم إلا الله كيف تعرف الطائرة طريقها فى الظلام ، لكن أجهزة القياس تؤدى كل شيء كما هو واضح .. وقود الطائرة هو الوقود الوحيد الذى أفلتت من معضلة ثلاثى الطاقة تلك .. إن أبحاث ذلك العالم الفقيد على الوقود البيولوجى هى مفتاح كل شيء يتحرك فى هذا العالم ..

كنت فى شبه غيبوبة .. أنا جالس حيث أنا منذ أيام .. فقط
يسمحون لنا بساعة من التريض بين مطار وآخر ..

أعرف أن (سلمى) فى الطائرة الأخرى ضمن فريق الرافصات ..
شئ مهين لكنه الحل الوحيد ، فلا يمكن لأحد أن يصل إلى قلعة
القومندان سوى عامل أو راقصة .. إن هؤلاء السادة يعانون لذا
هم بحاجة إلى ترفيه ..

فى الظلام أسمع صوت (فيتوريو) يتكلم مع جاره الإيطالى
الذى أعتقد أنه (ستافرو) .. لا أعرف الكثير لكن أعتقد
أن (فيتوريو) هو مدير العملية كلها .. وهو يتكلم بتلك الطريقة
التي يتكلم بها الرجال الأثداء فى أفلام السينما .. سوف
يكون رجال القومندان حمقى لو اعتقدوا أنه مجرد عامل
بسيط ..

كان الأمر واضحاً بالنسبة لى .. سوف يقبضون علينا فور
وصولنا ويرموننا بالرصاص .. فقط هناك احتمال ضئيل جداً أن
يكونوا أغبياء .. عندها يجب أن أجد (سلمى) وأمسك بيدها
بينما تقوم هى بتشغيل الجهاز ..

بالنسبة لهؤلاء الشوار كان السيناريو مختلفاً .. هم يأملون
أن أقودهم بذكالى وشجاعتى إلى طريقة تدمير عالم القومندان
هذا ..

سوف تكون مفاجأة سارة لهم !

لقد استغرق الأمر عدة أيام حتى وجدونا وحتى قال لنا
(سلمى) إن الضنبيين يريدون أن نكون معهم فى القلعة ..

كان هذا هو الحل الوحيد وقد جاء من سماء صافية ..

بالتطبع أصابنى الهلع ونشطت قرحتى .. لمست أنا أنسب
شخص للتسلل للقلاع السرية لو كنت تفهم هذا ، لكن (سلمى)
العزيزة كانت مصرة على رأيها :

- « لا يوجد حل آخر .. إما موت بطيء أو موت سريع لكن
معه احتمال نجاة .. »

وهكذا جاء ذلك اليوم الذى وقفنا فيه فى المطار بثياب أخذناها
من (سلمى) .. هى تلبس كراقصة .. لا أعنى أنها تلبس ثياب
الرقص طبعا ، لكنها تضع الكثير من المساحيق مع معطف جلدى

طويل وطابع عام من البهرجة .. لا أحد سيرى المساحيق هنا لكنها ذاهبة إلى حيث يرون ..

بالنسبة لى ارتديت ثياب العمال البسيطة المتسخة ..

لا أعرف أين كانت الطائرات ، لكنى فى لحظة بعينها لم أعد مع (سلمى) .. لقد لحقت بطائرتها ، أما أنا فرحت أزحف عبر ممرات مظلمة ليتلفنى رجال أمن يتحسسون الأوراق التى أحملها والتى طبعت بطريقة (برايل) .. أوراق مزيفة طبعا أخذتها من (سليم) .. لا بد أن هناك علامة ما تميز التزييف .. علامة قاتلة وسوف يجدونها لكن هذا لم يحدث ولله الحمد ..

أخيراً وجدت نفسى داخل الطائرة أتحسس المكان بحثاً عن مقعد خال ؛ لأنه كان هناك الكثير من الجالسين .. سمعت كلاماً بالإنجليزية والفرنسية والسواحلية .. وعرفت أن هؤلاء موجودون منذ أيام هنا ..

وفى النهاية استطعت الوصول إلى مقعد ..

وسرعان ما غبت فى نعاس عميق ..

يمكن القول إن رحلتى كانت نعاماً طويلاً مستمراً .. تارة أصحو من النوم وتارة أعيب فيه ، ومن حين لآخر يضع أحدهم شظيرة لحم فى يدي فأقضمها ..

توقفنا مراراً ليضاف لنا آخرون .. آخر لغة سمعتها هى الصينية .. إننا نقترّب من الهيماليا إذن ..

دوى الصوت يقول بالإنجليزية :

- « نحن نرتفع فوق مستوى الغيوم .. سوف نبدأ الملاحة اليدوية معتمدين على البصر .. »

وفجأة حدثت المعجزة ..

بدأ الظلام يقل .. فجأة تدرك أنه ليس ظلاماً متجاسماً .. تفهم السر .. لقد كان هذا الظلام المسطح عبارة عن سحب كثيفة سود .. والآن قد بدأت السحب تتباعد وتفترق .. ومن بينها تظهر السماء .. السماء الزرقاء التى خلقها الله !

النور يتسلل خافتاً لداخل الطائرة ..

تصاعدت صيحات الانبهار والاستحسان .. وردد الجميع صلوات بأكثر من لغة تنتمي لأكثر من دين .. بكى أحدهم غير مصدق .. أعترف أن دمعة تسلفت لعيني بدوري .. وهمست : سبحان الله !

فجأة صار النور هو كل شيء بالخارج ونسينا أننا كنا في ظلام دامس ..

دار الطيار قليلاً في الجو ، ثم قال في مكبر الصوت :

« أرجو أن تنظروا من الجهة اليسرى .. »

تدافعنا لنرى ما يريد أن نراه ..

كانت هناك قمتا جبلين متقاربتان .. وخيل لنا أننا نرى شيئاً بين الجبلين ..

عندما اقتربنا أكثر رأينا أن هذا رجل .. رجل يتدلى بين قمتي الجبلين مربوطاً بجنازير قوية إلى القمتين وقد تدلى في وضع النسر الفارد جناحيه Spredaeagled والغريب أنه كانت هناك شعلة نار قريبة منه معلقة على سارية عالية .. واضح أنها هنا لمنعه من التجمد ..

هل ما زال حياً ؟ لا أعرف ..

قال الطيار بصوت بارد :

- « الاسم (دانييل أوهارا) .. إيرلندي .. حاول سرقة بعض النار من قلعة القومندان لينزل بها إلى البشر في عالم الظلمات ، لكن الحراس قبضوا عليه .. وها هو ذا يتلقى عقابه العادل .. إن الطيور الجارحة والعواصف سوف تمزقه إرباً .. »

كان هذا درساً قاسياً لمن يريد أن يعتبر .. إن المشهد الشنيع لا يفارق ذهنك بسهولة ..

رجل حاول أن يسرق النار فكان عقابه أن علق بين جبلين ليموت ..

بيدو الأمر مألوفاً ..

ثم تذكرت .. (برومثيوس Prometheus) العملاق في الأساطير الإغريقية .. أراد أن يسرق النار من الأوليمب ليمنح أسرارها لبني البشر .. النتيجة هي أن (زيوس Zeus) عاقبه

بهذا الشكل .. وفى كل يوم يأتى الرخُ ليأكل كبده وفى الليل ينمو له كبد جديد .. رمزاً للعذاب الأزلئ ..

النار .. المعرفة .. (برومثيوس) أنقذه (هرقل) فمن لهذا البئس بهرقل آخر ؟

وارتجفت .. هذا القومندان يتصرف مثل (زيوس) وكأن قلعه هى (الأوليمب) .. إنه يعتبر نفسه إلهًا بالفعل .. وقد اختار هذه الميئة للمتمرد لأنها رافقت له .. وجدها شاعرية ذات مذاق أدبى ساحر ..

فليرحمنا الله فنحن ذاهبون إلى قلعة مجنون .. والأسوأ أنه مجنون قوى جداً ..

قطع على أفكارى صوت الطيار يقول :

- « اربطوا الأحزمة .. »

وبدأت الطائرة تنحدر .. إنها تحاول الوصول إلى الفجوة بين جبلين مغطين بالثلج .. ثم هى تتجه إلى ممر .. ممر طائرات عجيب تم شقّه بين سفحى الجبلين ..

متى صنع هذا الرجل هذا كله ؟ وأية إمكانيات لديه ؟
على كل حال لا يمكنك أن تحكم العالم بتكاليف أقل من هذا ..
عجلات الطائرة تلمس الممر ..
وتندفع الطائرة فى آخر خطوات رحلتها الرهيبة ..

9- المتحف ..

لم تكن هنالك شوك ..

منذ اللحظة الأولى التى ترجلنا فيها أدركنا أن ذلك البرج الذى نراه من بعيد محاطاً بالحراسة هو مركز الاهتمام والخطورة فى هذا العالم المضى ..

توقفت يده عند برج مرتفع .. وعاد يسأل :

- « هذا .. ما هو ؟ »

مدت (باولا) يدها حيث أشار ، وراحت تتحسس ثم قالت :

- « لا أعرف .. لكنه شديد الأهمية .. هناك حراسة مكثفة من

حواله .. »

لم نتبادل كلمات .. فقط لم نصدق أننا نمشى فى النور .. نمشى وسط ممر طويل يعج بالحراس على الجانبين .. ثم نمشى

وسط حدائق غناء تذكرك باللوحات التى كان يرسمها فناتو (إخوة ما قبل رافائيل) .. كل شيء هناك .. النافورة والطاوس والحسناوات اللاتى يرقدن على العشب يطالعين كتباً أو يركبن الأرجوحة ويبعثرن الأزهار .. لا ينقص المشهد إلا توقيع (جينسيور) أو (كونستابل) فى الركن ..

إنهن بنات سادتنا طبعاً .. ولدن فى الشمس والهواء وتمتعن بالحياة النباتية .. عرفن القراءة وربما التلفزيون أيضاً ..

تذكرت حياة الآخرين فى الظلام يتحسسون الطرقات وسط الرائحة العفنة .. تذكرت شطائر اللحم الكريه الذى لا تعرف ما هو ..

لقد حدث الاستقطاب بشكل قاس جداً ، وكما حلم به كتاب الخيال العلمى مراراً .. سادة مترفون وعبيد معذبون .. الفارق هنا هو أن العبيد هم العالم كله .. والفارق أن هذا لم يحدث نتيجة تطور داروينى طبيعى ، بل هو لعبة قاسية أحدثها نيزك هاو ..

ربما كان ما حدث للديناصورات أفضل ..

كان الطقس بارداً بحق .. لكن السبب هو إننا على قمم الهمالايا .. ليس السبب أن الشمس لا وجود لها ..

هذا يفسر لك المصاييح المتناثرة فى الحدائق .. إنها تخلق جواً صناعياً من الدفاء .. لن تبدو هاته السنوات قدامات من عالم (جينسبورو) لو أن كل واحدة منهن ترتدى (بول أوفر) بدلاً من تلك الغلالة الرقيقة ..

صاح أحد العمال الأسبان القادمين معنا بعبارات غزل .. أعتقد أنها عبارات غزل .. لأن مرأى السنوات أفقده صوابه .. من المبههر أن ترى حسناء لكن الأكثر إبهاراً أن (ترى) أصلاً ..

للأسف سمعه أحد الحراس وعلى الفور اتهم عليه حارسان ضرباً بكعب البندقية مع الكثير من الركلات ..

هكذا واصل الموكب مسيرته فى صمت وأدب .

هل ترى هذه البناية العملاقة ؟ يمكن بسهولة أن تدرك أنها المتحف هنا .. من النوافذ الخفيفة المغطاة بالزجاج ترى خليطاً عجيباً من لوحات عصر النهضة والآثار الأثورية والفرعونية .. هناك أجزاء تذكرك بمتحف اللوفر ذاته .. هناك رأس كبير (لأمنحتب الثالث) فى المدخل وسط الأشجار ..

هناك قوم من جنسيات مختلفة يبدو عليهم الرقى يحملون كاميرات التصوير .. منذ متى لم أر كاميرا تصوير ؟ إنهم ينظرون لنا فى مزيج من الدهشة والاستمتاع ..

من الواضح أن هناك أرسنقراطية كاملة قد تكونت من رجال القومندان وأسرهم وأصدقائهم هنا .. هؤلاء القوم الذين تربوا فوق الظلام وعرفوا معنى النور .. بالطبع استجلبوا لأنفسهم كل ما يجعل حياتهم هنا ممتعة .. حتى آثار الأمم الأخرى وكنوزها .. فى هذا شيء من المنطق على كل حال .. إذ ماذا يفعل بهذه الكنوز قوم لا يبصرون ؟

كنا نمر بهم .. كأننا جيش من العبيد لا نجرؤ على الالتفات ولا تبادل التعليقات ..

وقلت لنفسى : هذا لن يدوم للأبد .. طبيعة الأمور أن هذا لن يدوم للأبد .. منذ خلق الله الأرض والماء لا يبقى أبداً فى مكان مرتفع وإنما يهبط لأسفل .. لقد بُحَّ صوت المعلمة فى المدرسة الإعدادية وهى تشرح لنا معنى (الأوتى المستطرفة) ..

هناك ثراء ووفرة ونور والأهم أن هذه الأشياء مسلوبة من العالم كله .. لابد من أن يهبط هذا كله إلى حيث الفقر والشح والظلام ..

ولكن كيف ؟

يبدو أن هذه الأمور على عاتقنا .. وكما يعتقد هؤلاء الإخوة فبتها على عاتقى أنا .. وهو دور لا أستطيع القيام به ولا أرغب .. دعك من أن مشهد (برومثيوس) المعلق بين جبلين لا يفارق مخيلتى ..

فقط يجب أن أجد (سلمى) .. يجب أن أمسك بيدها ونضغط على أزرار الجهاز ..

أعتقد أننا سوف نلتقى الليلة بشكل ما ..

10- الخدعة ..

لم أكن مولعاً بالعمل اليدوى .. كنت أعتبر نفسى رجل فكر ، وهو رأى لم يقره الناشر قط .. كان يرى أننى أكتب كسبك أو حفار طرق .

هذه المرة كنت أمارس عملى فى التوصيلات الكهربائية بيد أديب .. لا أملك أية براعة فى هذه الأمور خاصة أننا نعمل فى أنفاق شديدة التعقيد .. ولولا التعليمات الصادرة بالإنجليزية من (أسطى) هندى يعرف ما يجب عمله لحدثت كارثة .

أعتقد أننى تركت انطباعاً عاماً بأننى لا أفقه شيئاً فى مهنة الكهرباء .. هذا ما كان ينقصنى ..

كأنت الساعة تقترب من العاشرة مساء بعد يوم شاق طويل .. وكنت موشكاً على فقدان الوعي ، عندما قال لى الأسطى الهندى :

- « هذا الكابل يقود لقاعة الاحتفالات .. أريد أن تتبعه وتتأكد من أنه معزول بالكامل .. هل تستطيع عمل هذا على الأقل ؟ »

قاعة الاحتفالات ؟ بالطبع ..

مشيت وراء الكابل وأنا أسلط شعاع الكشاف عليه .. رأيته يتلوى خارجاً من النفق صاعداً لأعلى فالتفتُ إلى رئيسي .. أشار لى أن استمر ..

ارتقيت درجات تم تدعيمها بالمعدن إلى ساحة مظلمة في الخارج .. أطفأت الكشاف ..

ووقفت آخذ شهيقاً عميقاً .. للمرة الأولى أنا وحدي .. لا توجد حراسة من أي نوع هنا .. يصعب على أن أتصور أنني فوق قمم الهيمالايا لكنها الحقيقة .. فقط هي هيمالايا تم جعلها صالحة للحياة بآلاف من أجهزة التدفئة المنتشرة في كل مكان ..

من بعيد أرى تلك الأشباح الشامخة مرتسمة على خط الأفق ..

إنها الأبراج ..

نعم أبراج .. فقد عرفت في هذا اليوم أن هناك أكثر من برج .. وكلها تحظى بذات الحراسة المكثفة .. لكنى بعيد عنها الآن ..

فجأة بدأت الأرض تهتز تحت قدمي ..

ونظرت إلى الأفق فرأيت أن قمم الأبراج تهتز بلا انقطاع .. ومنها يتصاعد ذلك المزيج الكثيف الأسود الذي لا أعرف ما هو ..

كان يتصاعد إلى السماء من أكثر من قمة .. كأنها فوهات مصانع تضخُ الدخان الأسود بلا انقطاع لعنان السماء .. للحظة تعالي الدخان ثم بدأ يهبط لأسفل ..

وفي ذعر فطنت إلى أنني في ظلام دامس لا أرى قدمي ذاتها .. لا أرى يدي ..

لكن هذه اللحظات القاسية لم تدم طويلاً لأن الدخان بدأ يتلاشى وينقشع ..

ما معنى هذا الذى رأيته ؟ هناك رسالة ما لكنى لم أتلّقها
بعد ..

لكن الأبراج كانت مستمرة فى الضخ بلا توقف ..
وسمعت تلك الخطوات من خلفى فأجفنت ..

* * *

نظرت خلفى فرأيت (فيتوريو) قادمًا يتعثر وسط الصخور ..
هكذا عدت أنظر أمامى ..
قال لى :

- « لقد تأخرت فأرسلنى الرئيس لأسأل عنك .. »

ثم نظر إلى الأبراج فى الأفق وهمس :

- « ما هذا ؟ »

قلت له فى شرود :

- « أعتقد أننى بدأت أفهم .. »

كان الظلام يزداد كثافة من حولنا فى هذه اللحظات ..

أردفت :

- « منذ جئت إلى عالمكم وأنا أتساءل عن سبب عدم اتقشاع
هذه السحابة التى سببها النيزك .. إن سيناريو K - T يقضى بأن
تزول الحياة عن الأرض سريعًا .. أما لو بقيت فإن هناك أملًا فى
أن يعود نور الشمس عندما تتقشع الغيوم .. لماذا ظل الظلام
عشرين عامًا هنا ؟ لأن هذا القومندان ورجاله مستمرين فى
تخليق السحابة السوداء .. هذه الأبراج تقوم بهذا الغرض ..
لقد جعلهم الظلام سادة يسيطرون على الناس سيطرة
مطلقة .. معنى عودة النور أن تزول سلطتهم ويستغنى عنهم
الآخرون .. »

كانت عيناه تتسعان رعبًا وهو لا يصدق .. أن يستغل
البعض الكارثة فهذا شيء ، وأن يخلق أحدهم كارثة فهذا شيء
آخر ..

قلت مواصلاً الكلام :

- « من الواضح أن هذا الغبار له كثافة معينة تسمح له بأن
يهبط لأسفل .. تحت مستوى القومندان .. ويظل معلقًا فى

11- الحفل ..

يتبادل الرجل مع صديقه عبارات المزاح وهما يمشيان فى الحديقة .. لا أعرف بلية لغة يتكلمان ، لكنهما لم يطبلا الكلام على كل حال لأن (فيتوريو) وثب من خلف الشجرة على أولهما فجندله أرضاً .. وقبل أن يصرخ الثاى كنت قد استجمعت ما فى جسدى من توتر وغضب وهويت بمقبض الكشاف على وجه الثاى ..

سقطا كحجرين لحسن الحظ .. وهكذا استطعنا أن نستبدل بثياب العمال ثيابهما .. كان من اخترته بديناً لذا لم تكن ثيابه مريحة على الإطلاق وقد احتجت أن أمشى فاتحاً ساقى كى لا ينزلق البنطال ..

مغامرة يقسة لأن رئيس العمال سوف يكتشف غياننا ، وسوف يتذكر أتنى مشيت وراء الكابل .. لو مشى وراء الكابل بدوره لوجد الضيفين المجردين من ثيابهما بسهولة ..

لكنى أمل فى أن أفعل ما أريد قبل أن يفتضح أمرى ..

الهواء .. هكذا يبقى الناس فى أرض الظلام كما هم .. خاضعين للسادة الذين يعيشون هنا .. هل رأيت الترف الذى يعيشون فيه ؟ لن يتركوا أحداً يسلبهم هذا .. »

قال (فيتوريو) فى شىء من الانبهار :

- « أنت عبقرى .. »

قلت لاهناً من البرد :

- « لست عبقرياً .. فقط أنا أول من رأى هذا المشهد .. »

ثم نظرت إلى الكابل الغليظ المتلوى على الأرض وغمغمت :

- « هذا الكابل يقود لقاعة الاحتفالات .. أريد أن أكون هناك

الآن .. »

أخفيناها خلف شجرتين ، ثم مشينا متظاهرين بأعنى علامات السرور .. كئنا من أبناء هذا المكان المخضرمين .. دعوت الله ألا يكونوا يحفظون شكل بعضهم لكن (فيتوريو) قرر أن الحد كبير فلا يمكن ملاحظة اثنين ..

كنا الآن في القاعة الرئيسية التي تقترب مساحتها من مساحة ميدان التحرير ، فقط لو أن ميدان التحرير كان مضاء بالثريا العملاقة وامتلاً بالقوم فاخرى المظهر في ثياب السهرة ، وفرشت أرضه بسجاد سميك طرى يذكرك بغابات الإستبس .. الخدم يركضون هنا وهناك ، وهناك مسحة من إضاءة خافتة تسمح بالآلا تبدو مريبين ..

همست له :

- « كل هذا الضوء والصخب بينما نحن نتحسس طريقنا في الظلمات .. لم يكن هناك عدل لكننا لم نتصور هذا .. »

قال :

- « لقد كانت خطوة التسلل ضرورية .. »

كنت أبحث بعيني عن (سلمى) .. لو وجدت (سلمى) لانتهدت متعابى .. سوف ألحق بها ونضغط الأزرار ونفر .. دع (فيتوريو) والضوئيين يتدبرون أمرهم فهم قاب قوسين أو أدنى من ذلك ..

سألته ونحن نمشي وسط الزحام :

- « لماذا لم تخططوا لاغتتيال القومندان ؟ أنا لا أعرف أين هو لكن المشروع مفر .. »

ابتسم كأنما يسمع طفلاً يتكلم . كان هناك ساق يمر بقربه فمد يده ينتزع كوب عصير من على الصينية ، وقال :

- « ألم تفهم بعد ؟ »

- « نعم . لم أفهم .. »

قال وهو يفرغ الكوب في جوفه :

- « لا يوجد قومندان ! »

كدت أصرخ من الانفعال ، ثم استجمعت أعصابى وسألته :

- « ماذا تعنى ؟ »

- « القومندان هو كل هؤلاء .. تلك الزمرة الحاكمة .. الجنرالات والعلماء القادمون من روسيا والصين وبعض الدول الأوروبية .. لقد قرروا أن يصنعوا لأنفسهم مجتمعاً مسيطراً خاصاً بهم .. ولما كانت الشعوب ميالة إلى الفكرة المجردة ، ولدت صورة القومندان الذى كان راهباً أتياً من التبت .. فى الحقيقة لا وجود له .. لا وجود له على الإطلاق .. القومندان فكرة تربط هؤلاء لا أكثر .. »

- « والكلام عن النبوءة ، وكل ما يقال عن إجادته السحر .. إلخ .. »

- « كل هذا هراء يؤمن به الجميع حتى أعواتى من الضوئيين .. ما لى من معلومات يؤكد أن القرارات تصدر جماعية لكنهم يضعون عليها اسم (القومندان) .. »

فجأة دوى صوت الموسيقى ..

نظرت إلى المسرح العلق الذى تقطعه أشعة الليزر من حين لآخر .. الدخان يتصاعد كأنه حفل زفاف ابنة خالتي .. مجموعة من الراقصات الغربيات يؤدين نوعاً من الباليه الإيقاعى وسط استحسان الجماهير ..

- « هناك على اليمين .. هذه (باولا) فتاتنا .. »

(باولا) راقصة تجيد عملها ..

فقط هناك على اليسار راقصة بلهاء بطيئة الحركة لا تجيد أداء دورها .. تتخبط وتتعثر وتوشك على أن توقع الصف بأكمله ..

كان من السهل أن أعرف (سلمى) من مسافة كهذه ..

رحت أشق الزحام نحوها .. سوف أدنو من المسرح وسوف تراتى .. سوف تتلاقى أناملنا .. ثم أضغط الأرقام السحرية .. أى شيء .. أية تركيبة .. المهم أن نرحل ..

أشق الزحام .. ثمة رجل عسكري يجرى اتصالاً .. أمرُ بجواره فأسمعه يتكلم بالإنجليزية .. أسمع جملة مما يقول :

- « الراقصة الثالثة على اليسار .. أريد معلومات كاملة عنها .. هذه لا تعرف شيئاً عن الرقص ! »

هكذا أركض بسرعة نحوها .. أقف تحت المسرح وأنوح بيدي ..

إنها لا ترائى .. البلهاء .. إنها تنظر لقدميها خائفة من أن تتعثر ..

ارفعى عينيك قليلاً .. انظرى لى .. لو كنت جوارك الآن لحطمت رأسك ..

فى اللحظة التالية سمعت ضوضاء من خلفى ..

أرى ضابطين يشقان الصفوف نحونا .. أحدهما يشير لها ..
والآخر يشير لى !

وسمعت من يقول بالإنجليزية :

- « وهذا .. ليس منا على الإطلاق .. ألم تفهموا بعد يا حمقى ؟
إنهما متشابهان ! إنهما تويمان !! »

12- الرحيل ..

دوى الصراخ من كل مكان وسمعت من يصيح :

- « الكمبيوتر قال إن نسبة التماثل بين ملامحهما 97% ! أنتم تعرفون أنه يدرس ملامح كل من يدخل هنا من ذكور وإناث ! »

وقال آخر :

- « كيف يصلان لهذا المدى ولم يلحظ أحد إلا الآن ؟ سوف تطير رعوس كثيرة مهمة ! »

حديث غاضب بالروسية .. بالألمانية .. بالصينية ..
بالفرنسية ..

لم أنظر خلفى ..

وثبت إلى المسرح فى اللحظة التى سمعت فيها طلقة رصاص تمر جوار رأسى .. ثم صاح أحدهم :

- « لا تقتلوها ! يجب أن يظلا حينئذ للاستجواب ! لا مفر لهما من القاعة .. »

وكنت الآن على المسرح أحاول النهوض بينما (سلمى)
تركض نحوى صارخة :

- « ماذا فعلت يا أحمق ؟ »

الفتيات بصرخن والمسرح يخلو بسرعة جنونية ..

تشبثت بساقها وباليدين الأخرى رحت أضغط على زررار الجهاز ..
(221 - ب - 1) ..

- « امنعوه ! إنه يحاول تفجير عبوة ناسفة بالريموت ! »

وظلقة أخرى تخطى هدفها .. هذه آخر طلقة تفعل ذلك .. لن
يظلوا حمقى للأبد ..

هيا .. مفتاح الإدخال ..

وسرعان ما تلاشت قاعة الاحتفال من حولنا ..

عندما تم التجسُّد من جديد وجدت أننا نقف فى ..

فى قاعة واسعة تذكرك بتلك القاعات الصناعية فى أفلام
(جيمس بوند) .. هناك ما يشبه المولد العملاق .. هناك سقف
عال جداً فيه طاقة نرى منها السماء .. هناك سلم معدنى
يتلوى قداماً من أسفل .. هناك غرف جانبية عليها علامات إنذار
التلوث النووى وخطر الموت .. هناك مصعد عملى جداً يناسب
المناجم والمصانع ..

الإضاءة خافتة زرقاء معقمة جداً ..

هناك باب كتب عليه بالإنجليزية (التحكم - ممنوع الدخول
لغير الفنيين من رتبة ألفا) وقد كررت العبارة بلغات
أخرى هى الروسية والصينية - قد تكون اليابانية -
والألمانية ..

أين نحن ؟

كانت هناك شاشات متناثرة .. شاشات تومض وتنطفئ
بلا توقف ..

كدت أتكلم لكن (سلمى) ضغطت على ساعدى وأشارت
لشاشة من الشاشات ..

رأيت على الشاشة وجهى ووجه (سلمى) كما بدونا عند النزول من الطائرة على الأرجح .. صور ثابتة تم التقاطها لنا ونحن لا نعلم ..

ودوى صوت المعلق يقول :

- « هاربان .. يجب البحث عنهما فى القلعة كلها.. »

ودوت صفارة إنذار منقطعة مقلقة من الطراز الذى يجعل أعصابك تتأكل ..

قلت لها :

- « ما معنى هذا ؟ نحن لم نرحل .. ما زال الموقف كما هو

وهم يبحثون عنا .. »

كانت صامتة تتأمل المفاتيح ، وقد قطبت جبينها ثم

قالت :

- « هل تلف الجهاز ؟ لا .. »

ثم تذكرت شيئاً فأضافت :

- « أنت من اختار الأرقام .. بالتأكيد أنت اخترت رقمًا استعملناه من قبل .. »

- « لا أنكر .. لكن لنفترض أن هذا حدث .. »

- « د. (محمود بكر) مخترع ناقل الجزيئات حذرنى من

الضغط على نفس الرقم مرتين ، لأنه لا يؤدى للانتقال إلى عالم

آخر .. فقط هو ينقلك إلى موضع آخر من ذات العالم .. أعتقد

أن هذا ما فعلته أنت .. لم تغادر الكوكب لكننا انتقلنا بضعة أمتار

فيه .. غرفة تحكم و ... »

ثم شهقت فى اتبهار :

- « هل تعرف ما أفكر فيه ؟ نحن فى داخل أحد الأبراج

الكبرى .. »

قلت لها :

- « بالمناسبة .. لا أعتقد أنك تعرفين ما أعرفه .. هذه

الأبراج هى .. »

- « هي التي تبقى سكان الأرض في ظلام .. لقد استنتجت هذا .. كنا في الخارج عندما رأيناها تعمل .. »

- « إذن دعينا نرحل بالله عليك .. أعيدى اختصار أرقام أخرى .. »

قالت في شرود :

- « نعم .. سنفعل ذلك .. لكن أرى أننا في وضع يتيح لنا مساعدة هؤلاء القوم .. ما كنا لتصل داخل أحد هذه الأبراج بسهولة .. نحن الآن بالداخل .. ما رأيك في عملية تخريب ؟ »

- « هل هي كافية ؟ »

- « لا .. لكن قسماً من نور الشمس قد يتسرب لأهل الأرض .. ومعه قسط من الحقيقة .. »

وقبل أن أعترض مدت يدها تفتتح ذلك الباب الذي كتب عليه (التحكم - ممنوع الدخول لغير الفنيين من رتبة ألفا) .

كانت الغرفة خالية تماماً فيما عدا بعض الشاشات المضئية وعدد من الروافع والأررار .. إما أنهم يبحثون عنا وإما أن التحكم آلى تماماً هنا ..

- « وإما أنهم واثقون من أن أحداً لن يدخل هذه المنشأة .. »
قالت لي :

- « تقول إنك أخرق .. هيا برهن لنا عن ذلك ! »

هكذا انطلقنا نعبث في الروافع .. لم نبق رافعة في وضعها السابق .. لم نترك زراً إلا ضغطناه .. لم نجد محولاً كهربياً إلا حطمناه .. انتزعنا كل سلك وقابس .. الشاشات هشمتها .. بدأ الظلام يسود المكان ..

جهاز إنذار يدوى من مكان ما ..

فجأة انغلق باب الحجره علينا .. إنه يعمل بشكل أوتوماتيكي إذا حدث تخريب ، ومن مكان ما دوى صوت آلى رتيب :

- « فشل عام في النظام .. توقف لآليات الإقلام .. فشل عام في النظام .. توقف لآليات الإقلام .. »

كان هناك من يصيح في الخارج .. صوت طلقات .. كلمات عصبية تقال ..

لقد عادوا .. لا أعرف ما أحدثناه من ضرر لكنه كبير
يا (سلمى) .. إنهم قد فقدوا أعصابهم ..

قالت وهي تمسك بيدي :

- « الظلام يعم .. من الحكمة أن نرحل الآن .. »

وضغطت الأزرار وهي تمسك بيدي ..

في اللحظة التي بدا أن هناك من يفتح الباب ..

لكننا كنا قد ذبنا في عالم اللانهائيات ..

كنت جالسا إلى مكتبي أدون المغامرة الأخيرة عندما جاءت
(سلمى) وفي يدها ورقة والجهاز ناقل الجزيئات . وانتظرت
حتى فرغت من السطر الذي أكتبه ، ثم قالت :

- « كنت أشك في شيء ما .. لهذا قمت بتفريغ شريحة ذاكرة

الجهاز التي تحتفظ بالأرقام التي طلبناها .. »

ثم راحت تراجع الأرقام وهي تشطب على الورقة بقلم

رصاص :

- « هذه هي أول عملية انتقال فررنا بها من قسم الشرطة ..

هنا العملية التي فررنا بها من أرض بلا فراغنة .. وهذه ..

كنا في أرض المغول .. ثم فررنا .. هنا فرارنا من أرض العظايا ..

أما هذا الرقم فيمثل فرارنا من الديناصورات .. فرارنا من الحفل

في أرض الظلام .. ثم فرارنا من البرج .. »

ثم وضعت القلم بين شفتيها ، وقالت :

- « لم يتكرر أي رقم ! »

صحت في دهشة :

- « يا سلام ! ولماذا لم تغادر كوكب الظلام عندما وضغطت أنا

أزرار الجهاز ؟ »

قالت في خبث :

- « غادرناه فعلاً ! الحقيقة أننا كنا في كوكب آخر

يقوم الطغاة فيه بحكم باقي البشر من قلعة فوق جبال

الهملايا ! »

- « عم تتحدثين ؟ »

- « هذه هي الحقيقة ! الكوكب الذى دمرنا أجهزة الإزلام فيه هو كوكب آخر يمر بذات الظروف ! وقد تجسدنا على بعد أمتار بدلاً من أن نتجسد فى الحقل ! »

صحت فى ذهول وأنا أضرب المنضدة بيدي :

- « هذا يعنى أننا لم نقدم أية خدمة لـ (فيتوريو) و(سليم) والآخرين .. »

قالت باسمه :

- « على الأقل هم يعرفون أين يوجهون ضربتهم عندما يقررون الضرب .. عندما تزول الغمامة ويصل نور الشمس إلى الأرض سيثور الناس ضد من استلبوهم حقهم فى النور .. »

ثم أضافت فى خبث :

- « ولا تتمس أننا قدمنا هذه الخدمة لكوكب آخر فى مجرة أخرى ! »

رحت أنتظر لها فى حيرة .. إن الصداع يفتزو رأسى بحق ..

- « لو كنت تعتقد أن الكون معقد وعسير الفهم ، فعليك أن تتبلع بعض أقراص الصداع لأن الأمور سوف تزداد سوءاً .. »
قالها عالم الفلك الأمريكى (مايكل تيرنر) ، ويبدو أنه لا يعرف كم هو محق ودقيق ..

لا نعرف متى سنجرؤ على ضغط الأزرار من جديد .. حتى هذه اللحظة استعملنا الجهاز كوسيلة فرار من وضع خطير ، وبما أننا فى حالة استقرار حالية ، وبما أنه لا يمكن طلب ذات الرقم مرتين ، فبأنى أعتقد أننا لن نخاطر بترك هذا العالم المستقر .. وأعتقد أن فترة استقرارنا ستطول ..

دعك من أن السفر بين العوالم الموازية قد يكون خطراً بالنسبة لسيدة حامل !

خاتمة

من جديد يعود د. (رفعت إسماعيل) ليودعكم ..
أرجو أن تكون القصة قد رافت لكم ..

عالم جديد من العوالم الكابوسية التى لم يكف الأخ (سالم) و(سلمى) عن ارتيادها ، وفى كل مرة أشعر أن عالمنا رائع الجمال ..

كما قال فى نهاية رسالته : لا نعرف متى سنجرؤ على ضغط الأزرار من جديد .. حتى هذه اللحظة استعملنا الجهاز كوسيلة فرار من وضع خطير ، وبما أننا فى حالة استقرار حالية ، وبما أنه لا يمكن طلب ذات الرقم مرتين ، فإبنى أعتقد أننا لن نخاطر بترك هذا العالم المستقر .. وأعتقد أن فترة استقرارنا ستطول ..

هذا صحيح .. لم يجربا الجهاز للسياحة قط وإنما للهرب ، أى إنهما استعملا مزايا الجهاز السلبية لا الإيجابية .. ألا تكون هنا بدلاً من أن تكون هناك ..

الخبر الجديد الطريف هو أن مدام (سلمى) تنتظر حدثاً سعيداً .. بالفعل أعتقد أن هذه المغامرة غنية بالنسبة لحامل .. ولربما يوماً ما تكون المغامرات ثلاثية ..

عالم بلا شمس .. عالم من الظلام .. هذا عالم لا يناسبنى
حتماً ..

صبراً .. لقد انقطع التيار الكهربى فى هذه اللحظة بالذات ..
لكننا نحتفظ بالأمل ..

لربما تعود الكهرباء .. ربما تشرق الشمس مرة أخرى ..
ربما يكون هناك غد ..

فى القصة القادمة أحدى لكم عن خبرتى مع نادى الغيلان .. إن الأندية تتعد .. ومجالات اهتمامها تختلف .. لكن ما هى اهتمامات نادى الغيلان بالضبط؟! يمكنك أن تتخيل !
ولكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

تمت بحمد الله

أسطورة أرض الظلام



د. محمد رضا الزقزوق

أفكر أننا في ممر الجردان ..

حيث فقد الموتى عظامهم ..

أية ضوضاء هذه ؟

إنها الريح تحت الباب ..

« وما هذه الضوضاء الآن ؟ .. ماذا تفعل الريح ؟ »

لا شيء .. نعم لا شيء ..

« ألا ترى شيئاً ؟ .. ألا ترى شيئاً ؟

ألا تذكر شيئاً ؟ »

(ت.س. إليوت)

العدد القادم

أسطورة نادي الغيلان

المؤسسة

العربية الحديثة

لتنوع ونشر والتأليف بالقاهرة والسكندرية

التمن في مصر 400

وما يعادله بالدولار الأمريكي

في سائر الدول العربية والعالم

